وتشحنني بالشجاعة، فتساءلتُ:

– لغز؟ أهو لغز... هل تريدون ان ترعبوني... بالألغاز.

– الألغاز؟ على العكس... نحن واضحون...

– إذن قل لي... ماذا فعلت؟ ماذا اقترفت؟ وما الذي أفعله وأقترفه الآن؟ مما يستوجب العقاب.

– أنظر الى ملابسك... تعرف جريمتك....

– ملابسي؟ جريمتي؟

وكدت أُصعق... أتكمن جريمتي في ملابسي؟ ملابسي وحسب. أخذت أتأمل ملابسي بدقة، كأني أراها لأول مرة. وأردد بيني وبين نفسي... ماذا بملابسي... إنها نظيفة، عدا الأتربة التي علقت بها بسبب أوامرهم الغريبة... ثم... ثم إنها محتشمة جداً... وأنيقة جداً... سروال حليبي مشرب بلون القهوة... وقميصٌ ورديٌ بلون الحذاء الذي إنتعله. منحني وقوفي على هذه الحقائق غير المؤذية لأيّ إنسان... وكون جريمتي متقلصة في ملابسي... ملابسي فقط أنا الذي كنت أتصور بأني قد دست على أقدس مقدساتهم... وإنتهكت حرمة من أشد حرماتهم، جرأة فائقة:

– ماذا بملابسي... يا هؤلاء... إنها آخر موديل... وأنا...

– موديل...؟

صرخت الفتاة، تقاطعني بخيبة أمل. وأضافت بإستهانة:

– من يحفل بالموديلات هنا.

أوضح الرجل الثاني:

– ليس في كل ملابسك نقطة سواد واحدة.

قالت الفتاة، بعد هنيهة تفكير وكأنها تخاطب نفسها، بصوت مسموع:

– تلك مشكلة... مشكلة حقاً.

تحفز الثلاثة في آن واحد، صارخين بإحساس مترع بالانتصار:

– وإذن؟

وتدفقت شهوة الإنتقام من أفواههم، إلا أن الفتاة، فتاتي الحبيبة. أسرعت

تردعهم... بحكمة وتروٍ.

– على أية حال... هي مشكلة غير مستعصية على الحل.

وتعلقت عيناي وكل وجودي بشفتيها القرمزيتين المكتنزتين اللتين ليست فيهما نقطة سواد واحدة:

– قولي... قولي فدتك روحي.

– أأنت على أستعداد لـ...

وقاطعتها بلا أدنى شعور بالمسؤولية... وبلا أي تريث... لمعرفة المطلوب.

– كل الإستعداد... ولكل ماتطلبين.

– ولن تنكث بوعدك؟

– بوعد أقطعه لك؟ (وأضفت بحزن مفاجئ) يبدو أنك لاتعرفين المكان التي بوّأتك إياها... في نفسي...

– يعني؟

– يعني أنتِ الملكة وأنا العبد. أنت تأمرين وأنا أُطيع.

– ذلك حسنٌ... حسن جداً. هاتوا لهُ عباءة سوداء.

كم كان أهون عليّ... واخف وقعاً على نفسي، لو قالت لهم، هاتوا سكيناً وقطعوه ارباً ارباً... أو خذوه وأدفنوه حياً... ومع اني أعرف... حق المعرفة الغاية من طلب العباءة... فاني تساءلت... لكي أمنح نفسي وقتا ما... لهضم فكرة ارتداء عباءة سوداء... ما دام الأمر قد نزل عليّ كالقدر الصاعق الذي لامفرٌ من الرضوخ له:

– عباءة؟ لماذا؟

أجاب أحدهم، لم أتبين أيّهم كان:

– لكي ترتديها... وتغدو واحداً منا...

– آه...

أطلقت زفرة ندم. خرجت الآهة مني على الرغم مني. صرخ الثلاثة معاً:

– أتراك مستنكفاً أن تكون واحداً منا.

أسرعت بالإجابة. وأنا أرى ست كوىً من النار قد فُتحت عليّ:

- لا، لا، على العكس، على العكس تماماً.

ثم بررت ضعفي وخوفي منهم وإنخذالى أمامهم، بطريقة تحفظ ماء وجهي:

- لقد وعدت الآنسة... ولست بالذي يتنصّل عن الوعد.
- جيد جداً... فأنت تبدو...

وابتلع بقية كلامه. غصّ به حتى أوشك أن يختنق إذ علا صوت الرجل الوتد:

- إنه لايستجيب... الرب لايستجيب.

وإنتفت الأفواه المدفونة في التراب... عن صرخات زاعقة:

- والعمل؟ ما العمل؟

ثم تعددت مصادر الأصوات والصرخات وتعددت وتلونت النبرات:

- ابذل قصارى جهدك.
- أنت كاهننا الأكبر...
- بل كاهننا الوحيد... ليس لنا سواك.
- وحدك القادر على مخاطبة الإله.
- إنه... أميرنا... سيدنا... لاحياة لنا بدونه
- حاول... حاول... لاتعجز... لاتقنط...
- خذ حياة ايّ منا وأنفخها في جسده المنهوك.
- خذ حياتي أنا.
- بل حياتي أنا.
- لا بل حياتي أنا...
- بل أنا... أنا... فأنا الأولى... بالتضحية في سبيله.

وظلت الأصوات الصارخة... والصرخات الزاعقة... المختلطة بصخب وضوضاء هائلين، لفترة غير قصيرة، تصك الأذان. ثم... وكما تنزل سكينا مجززة عصرية على رقاب مجموعة من الخرفان لاتنقطع عن الثغاء، والشكوى، والتذمر. ترك كلام الوتد... على الحناجر:

- صمتاً... يا ناس... صمتاً.

وساد الصمت، وبات يُسمع صوت الشهقة والزفرة. حتى مزّقه بنفسه:

- ذلك أمر... يقدره الرب وحده.

فعلت الأصوات ثانية، بصخب وضجيج أشد:

- أذهب اليه واستشره.
- إختلِ به.
- إصعد الى التل وخاطبه... مثلما اعتدت أن تفعل في الملمّات والمحن.
- تحرك... يا كاهننا المبجّل... ماذا تنتظر.
- إنها محنة المحن وملمّة الملمّات...
- من لنا سواك... من لنا عداك... هيا... هيا...

وما زالوا يتضرعون اليه... ويتوسلون... حتى أخذ يتململ ويتحرك... ثم أخذ يسير... دائماً على الأجساد الممدودة المتلاصقة... نحو مرتفع داكن اللون... لايرتفع عن الأرض المستوية المتربة سوى بضعة أشبار. تساءلت في سرى... مستنكراً... أهذا تل؟ ... أيسمون هذا المرتفع الضئيل تلاً... ترى ماذا يسمون التل الحقيقي...؟ ورحت أمعن النظر فيه... ففوجئت بأن تلّهم ليس إلا مجموعة أجساد بشرية... إختارت لنفسها أو أُمرت... أن تتكوم على بعضها البعض... صانعة ما يسمونه... بالتل، بينما تكدست أجساد أخرى. بصورة متدرجة... مشكلة سلماً من بضع درجات يرتقيها الصاعد على هذا التلّ الغريب الذي لايتجاوز كل إرتفاعه المتر... همس في أذني صوت كالفحيح:

- هيا... هيا... إنزع.
- انزع؟

وتلفّتُ مرعوباً، فإذا بأحد الثلاثة، يقدم لي عبارة سوداء... ويقول مطمئناً:

- لكي ترتدي... عباءتك.
- آه.

وخشية أن ينتهك سرُّ آهتي... أسرعت أعلن رضوخي لأمرهم:

- سأرتديها... فوق ملابسي.
- لايمكن. مستحيل. فوق الجلد... ينبغي ارتداؤها فوق الجلد.

كم كانت دهشتي صاعقة حين إكتشفت ان الفتاة، فتاتي هي التي تقول ذلك، أضاف آخر:

- يجب أن لايبقى فيك شيء يختلف عنا... أيّ شيء.
- نحن نريدك مثلنا... مثلنا تماماً.
- هيا... هيا...

قلت بصدق. بنبرة توسل:

- أنا خجول... أخجل من نزع ملابسي أمام الآخرين.
- نحن ننزعها لك.

قالت الفتاة... دون أن تصيبني أية دهشة هذه المرة، وإمتدت ثمان أيدٍ... تنزعني ملابسي... قطعةً قطعة. حتى أحالوني. في بحر ثوان وحسب الى الحالة التي كنت فيها أول ما سقطت من جوف أمي. وبالسرعة نفسها و... وفي بحر ثوان أقل وجدت نفسي داخل عباءة سوداء... تفوح منها روائح منتنة شتى... هي مزيج من رائحة العرق والزنخ والروث... و و... لا أدري ماذا أيضاً... إذ اسرعت بدفن وجهي في التراب... هرباً منها...

- جميل... جميل... انه يتعلم بسرعة.
- ألم أقل لكم؟

قالت الفتاة بزهو... بينما قلت أنا بأسف:

- الفضل، كل الفضل للعباءة، فهي التي تعلم.

إمتدت يسرى الممدود على يميني، ويمنى الممدود على يساري، تربتان على ظهري، تباركان لي موقفي الجديد... بينما راح الثالث يداعب شعري بحنان كما يداعب عم ودود شعر أبن أخيه اليتيم. ثم انسلّ كل واحد منهم بعدما أطمأن كل الإطمئنان الى أنه قد أنجز مهمته خير انجاز... وادّى رسالته، إذ هدى بفطنته أو بقوته وعنفه إنساناً ضالاً الى طريق الهدى... فراح يزحف مبتعداً عني... ربما للبحث عن اناس آخرين من امثالي... وإن كنت أشك في وجود شخص آخر. في هذا الجمع الغريب، يشبهني من قريب... أو بعيد. تنفست الفتاة الصعداء، وهتفت بفرح:

- حمداً للرب الذي أنقذك من شرهم... كانوا يقتلونك لامحالة لولا ... العناية

الإلهية التي...

- وأنت أيضاً... إقتربي مني... أنا مدين لك بحياتي... إلتصقي بي...
- ليس الآن، ليس الآن... لقد عاد الكاهن محمّلاً برسالة الرّب...
- ولكن...
- هش... هش...

إرتفعت الرؤوس، الرؤوس فقط، بينما ظلت الجسوم راقدة، فبدت مثل رؤوس حرباوات، تتحفز لإقتناص ذبابة، وإرتفعت رأسي أيضاً بفضول حالها حال سائر الرؤوس الأخريات، لإلتقاط مضمون رسالة الرب التي عاد بها الوتد الكاهن، الذي توتّد في نفس المكان حيث كان متوتداً فيه من قبل، بمحاذاة المريض المسجّى على الأرض. فتعلقت الآذان والعيون بشفتي الكاهن، الذي راح باشارات خرساء من يديه، ينشر الصمت... دثاراً خانقاً يغطي الجميع... تلتهب تحته اللهفة والترقب، وتتضاعف اوجاع الأعناق التي تحمل الرؤوس المثقلة بالقلق والاضطراب... وبالسؤال الأثقل الأكبر الذي يجول باقدام الوحش في كل الرؤوس.

أخيراً... وبعد أن أطمأن الكاهن الى سكون الجميع... نطق وقال:

- الرب... يطلب... قرباناً.

هكذا... باقتضاب شديد... وبتواصل وفراغات بين الكلمات الثلاث التي لفظها... بتأنّ شديد... ونبرة متهدجة... متشنجة... صرخت، أنا، برعب، بصوت يخنقه الخوف والإستنكار "قرباناً؟"، بينما صرخ الآخرون، مستبشرين ومبتهجين بمن فيهم الفتاة، فتاتي، بصوت واحد... مخضل بالفرح:

- كلنا... قرابين.
- إختر منا... من تشاء.
- إخترني... أنا
- بل... أنا...
- لا... بل أنا...

تناطحت الأصوات وتشابكت، متشاجرة... مع بعضها البعض، في عراك محتدم. بدا لي واضحاً أنه سيكون ضارياً... دموياً. وسيكون ثمة جرحى وربما

قتلى وأشلاء. فيما بينهم... وهم في صراعهم من أجل نيل الشرف الذي يلّوح به الكاهن... لولا أن الكاهن نفسه، قد إستحال، مرة أخرى سكيناً قاطعة لأوتار الحناجر... ومصادر الضجيج والضوضاء:

- صمتاً... يا ناس... صمتاً.

وصمت الناس جميعاً، دفعة واحدة. كما لو كانت أصواتهم صادرة من محطات اذاعية، كثيرة الصخب، وأنقطع عنها فجأة التيار الكهربائي، بينما عاد صوت الوتد وحده، يهدر من جديد:

- إن من تختاره العناية الإلهية وتشمله الرحمة الربانية، وتصطفيه من الخلق جميعاً... لابُدَّ أن يكون شخصاً تتوفر فيه صفات وخصال خاصة.

عادت الأصوات تزعق:

- أنا من تتوفر فيه كل الخصال المطلوبة.
- أمنحني هذا الشرف، فأنا الأولى به...
- آه... لاتدع رحمة الرب تذهب عني... فأنا احمل لها...
- بل... أنا...
- لا... بل أنا...

واختلطت الأصوات وتداخلت من جديد... كما لو كانت أصوات قطيع متنوع من الحيوانات الجائعة المحاصرة... تلوح لها رابية خضراء... أو معلف دسم. مما حملني على الاعتقاد بأن هؤلاء القوم، لايعرفون معنى كلمة "القربان" أو... أو... انها تعني في لغتهم شيئاً آخر... غير الذي تعنيه في كل لغات العالم.

سألت الفتاة، فتاتي، ببراءة جمّه:

- أتعرفون حقاً... من اجل ماذا... تتنافسون وتتسابقون؟
- طبعاً... من أجل نيل شرف القربَنة.
- وأنت مستعدة لتكوني قرباناً... لذلك الجسد نصف الحي، نصف الميت.
- بالتأكيد... ولهذا تراني هنا.
- أتعرفين معنى كلمة القربان؟
- إخجل يا هذا إخجل... من هذا الغرور الذي يحتويك...

- لا أقصد الإستهانة بمعلوماتك... ولكن يخيل اليّ ان...
- هش... هش... الكاهن سيتكلم.

و... تكلم الكاهن:

- إن من إختاره الرب... هو بدر في ليلة تمامه.

سرى في الجميع همس... كما تسري الرعدة الكهربائية "بدر في ليلة تمامه".

- هل فيكم من يرى نفسه، أو يراه سواه، بدراً في ليلة تمامه؟

أوضح الكاهن، متحدياً الجميع، وبحركة سريعة خاطفة، ضممت الفتاة، فتاتي، اليّ... وغطيتها بعباءتي... لبطت... تريد التملص:

- ماذا تفعل؟ دعني... آه... دعني.
- اخفيك عن عيون هذا المتوحش فأنتِ أحلى من كل البدور في ليالي تمامها...

ولا أدري كيف تسلقت لساني عبارة، أمقتها أشد المقت، من كثرة ماسمعتها تتردد في الافلام والمسلسلات المصرية، التي تغزوني ليل نهار بتفاهاتها، التي تصل حد القرف وتتجاوزه:

- ... "أمر أربعتشر" أقصد قمر أربعة عشر.

إنسلّت من بين ذراعي:

- أنت لاتعرف شيئاً... أنت لاتفهم شيئاً.
- أنا؟

تساءلت بامتعاض وغيرة حقيقية على معارفي ومعلوماتي.

- ليس في المدينة كلها... مخلوق بهذا العمر.

وأضافت من بين أسنانها، بحقد:

- انه إختيار خبيث... وشرط تعجيزي... يخفي تحته مزايا أشد خبثاً وأكثر إستحالة.
- كيف؟
- الكاهن نفسه منع الانجاب منذ أكثر من ثلاثين عاماً... فكيف يكون ثمة مولود في الرابعة عشرة، الآن... أو في زمن آخر؟
- كيف؟ كيف؟ بأي حق؟ من هو... لكي...؟ آه انه لحيوان شرير حقاً.

لم تجب الفتاة. فتاتي، فرحت أحثها:

- أجيبي... أجيبي... يا...
- أنت غريب... لايجوز ان تطلع على أسرارنا...

ثم أضافت... بنبرة لؤم وأسف:

- وأنا لا أعرف لماذا... أتحدث اليك... بهذه الأسرار.

قلت... بإحساس بالتباهي:

- لأنك تحبينني، وثقتي بي...

أجابت بدهشة:

- عن أيّ شيء تتكلم. الحب نفسه محظور.
- محظور؟ الحب محظور؟ لماذا... لماذا؟
- لانه... مخالف لتعاليم الرب.
- هذا كذب... هذا إفتراء على الرّب، لاربّ يحظر الحب.
- أسكت... أسكت... لاتثر سخطه وغضبه علينا.
- غضب من... الكاهن أم الرب المزعوم؟

لم تجب، تهربت من الإجابة. وتوجهت الى الكاهن:

- سيدي الكاهن أنت تعلم والرب قبلك يعلم... ان لاأحد في المدينة كلها... بهذا العمر الذي...

قاطعها الكاهن، بغضب شديد:

- الرّب يعلم... وأنا أيضاً... ولهذا فالرّب لايخطئ... وأنا أيضاً لا أخطئ... خلف هذا الجبل...

أكسى صوته نبرة غريبة وأشار الى الأمام... نظرت حيث يشير اصبعه. لم يكن ثمه جبل... ولا مايشبه الجبل. ومع هذا عاد وكرر:

- خلف هذا الجبل، يعيش مخلوقان شاذان عاقان. عصيا أوامر الرّب وخالفا قانون المدينة. وخرجا على شرع القوم، وأنجبا طفلاً... والليلة... الليلة بالذات... سيغدو الطفل بدراً... كاملاً... وقبلما يحل الليل ويكتمل... ينبغي أن يكون... هو... وهو فقط قرباناً لأميرنا... هكذا شاء الرب... تلك

هي مشيئة الرّب... فاسرعوا، أتوني به... حالاً... حالاً.

وإصطخبت الصرخات الهستيرية، من كل حدب وصوت:

- حالاً... حالاً.
- الآن... الآن

وفي لمح البصر تفرّق الجميع... بمن فيهم الفتاة، فتاتي، كلٌّ يسعى الى القبض على البدر ليلة تمامه... قبل تمامه. ظل الكاهن، في مكانه، واقفاً. والجسد مسجى أمامه، حذاء قدميه، بلا حركة... بينما رحت أنا التصق بالأرض... أكثر وأكثر... متمنياً أن تنشق الأرض... وتخفيني بين طياتها عن رشقات عيونه الذئبية التي يبثها في كل مكان. ربما، هكذا... تخيلت، بحثاً عن متقاعس... لم يسرع الى تنفيذ أمره الغريب، قبعت في مكاني حيث أراه... ولا يراني. ارقبه، منقطع الأنفاس، مرتعد الأوصال. أكاد... أختنق. شرع يؤدي حركات غريبة... يتوجه الى السماء تارة، كأنه يستمطرها... ثم يشير الى الجسد المريض، أخرى... ويتمدد الى جانبه... ويعود ينهض... يدور حوله... ثم يسقط فوقه... يلثمه في كل موضع من مواضع جسمه المغطى بالعباءة. لا أدري كم مرّ عليه وهو على هذه الحال... لايسكن ولا يستقر حتى ثار غبار كثيف... غطاه تماماً... فغاب عن ناظري... ودفنت وجهي بكلتا يدي... مغطياً عيني... وإذ شعرت بان الغبار قد أنقشع أو خف، فتحت عيني... ففوجئت بأن الحشد البشري قد عاد الى مكانه... أنّبتني الفتاة:

- لماذا تخلفت عن الجميع؟ كان ينبغي أن تكون معنا.
- أكان الأمر صعباً...؟
- لا. أبواه كانا في الحقل،
- أين هو؟ لماذا لا أراه...
- اوه... لا... لا... لاقبل لأحد برؤيته، نوره يصقع... يُحيل الليلَ نهاراً...
- وأنتم؟ كيف لم يُعْمِ نوره ابصاركم؟
- ألقينا عليه... كل ما علينا من عباءات... حبسنا النور المتدفق منه.

وإذ ذاك... إذ ذاك فقط... إنتبهت... الى انها عارية، وأن الكل عراة... إلاّ أن سواداً أشد حلكة من عتمة العباءات يُغطي الأجساد كلها.

- انزع العباءة... قبلما يكتشف أمرك.

وإمتدت يدها بسرعة، تريد نزع عباءتي عن جسدي. ولكني رددتها بعنف:

- لا... لا... لست مثلكم... لن أكون مثلكم.
- سيفترسونك... يا مسكين... أطعني.
- لا. لا. الكاهن لايزال... داخل عباءته... أنظري... أنظري اليه... التمع نصل سكين بيد الكاهن... أمسك بشعر المرأة العجوز التي... قدمت له راسها...

"سيحزُّ رقبتها" قلت في نفسي، مشفوعاً بأمل أن يفعل " ليته يفعل" ولكن لم يفعل... إكتفى بقصّ شعرها، ثم قصّ لحيته. وأخذ يجدل شعر رأسها... بشعر لحيته... حتى صنع منهما حبلاً... أو ما يشبه الحبل... ثم خطا، بعدما تأكد من طول الحبل... وصلاحيته، لما خطط... نحو العباءات المكومة على بعضها التي تخفي في طياتها أو تحتها، الطفل المسروق من أبويه. طعن بالسكين تل العباءات بقوة. "سيتدفق النور" قلت لنفسي... يحدوني أمل قوى. ولكن... لا... مرة أخرى أخطأت في توقعاتي... وخاب أملي. إذ تدفق بدل النور الوهاج دم أحمر، شديد الإحمرار... فأسرع الرجل الوتد بادخال الحبل المجدول من شعره وشعرها، في الفتحة التي ثغرها... فراح الدم يسيل من الطرف الثاني للحبل، بغزارة، كما لو كان انبوباً مجوفاً... فاندفع، بقوة، نحوه، يدخله في فم المريض... ويطبق على فكيه بكلتا يديه... إخضلّ الحبل بالدم... وأخذ يسيل على إمتداده.

- لاتدعوا قطرة واحدة تسقط على الأرض... وإلاّ أنبتت العشرات من أمثال هذا الوغد...

صرخ الكاهن العجوز... قالت المرأة العجوز بيأس:

- الخرطوم مشقوق. لا سبيل الى تجنب ذلك.
- احذري أيتها العجوز... إحذري...
- وماذا بوسعي... أن أفعل... ان الأمر فوق...
- مصي... مصيه.

أخذت المرأة العجوز. تمسح الحبل من تل العباءات حتى الجسد المسجى بشفتيه... ولكن الدم كان غزيراً، فرفعت عقيرتها بالشكوى مرة أخرى:

- انه غزير جداً... لا أستطيع السيطرة عليه... ليساعدني بعضهم...
- ساعدوها... يا هؤلاء... ساعدوها...

وهبّ أكثر من واحد من الـ "هؤلاء" يلعق الحبل... يمسحه... يلمسه بشفتيه... في كل موضع تطاله يداه... ورأيت بعضهم... يفتح كفيه اناءً... يتقاطر فيه الدم... وإذ تمتلأن... يعبّه بشرهٍ غريب... ويعيد الكرة ثانية وثالثة... وينصح القريب منه أن يفعل فعله.

- أليس غريباً أن يمتلك طفل في عمر البدر ليلة تمامه كلّ هذا القدر الهائل من الدم...؟

سألت شارد اللب. وأنا أرقب هذا المشهد الخرافي الذي يجري أمام عيني.

أجابت الفتاة ببرود تام:

- هو طفل شاذ... لايشبه أطفال مدينتنا... على أية حال.
- وهل في مدينتكم أطفال...؟ ألم تقولي إن الكاهن منع الإنجاب؟

تهرّبت من الإجابة، بطريقة بدت لها ذكية... أو مُقنعة، على الأقل:

- أبواه خرجا على قانون المدينة... فخفت عليهما وعليه... اللعنة...

وقفزت بخفة شديدة الى موضوع آخر:

- أنظر... أنظر... لقد دبّت الحياة في الأمير... آه... روحي فداك سيدي... روحي فداك...

إلا أن الذي أثار أهتمامي، ليس الأمير، هذا الميت الذي بدأ فعلاً... يخرج من الموت الى الحياة... وانما تلّ العباءات الذي أخذ يتضاءل ويتضاءل... منكمشاً على نفسه... كما لو كان كيس ماء جلدي... إخترقه سهم:

- بل... أنظري... الى التل... انه يتلاشى... ويكاد...

قطعت كلامي إذ وجدتها تبكي بصمت... بكاء متشنجاً... متقطعاً:

- أتبكين؟

وكأن عقرباً لسعتها:

- ها؟ لا... لا... ولماذا أبكي؟ ومن أجل مَن أبكي؟ أنا سعيدة... سعيدة جداً، بعودة أميرنا العزيز... الى الحياة.

– تكذبين.

قلت بحدة، لم تجبني... أنا الآخر لم أحرص على استمرار الحوار معها... إنصرفت عنها... ولكن صوتها شدني اليها ثانية:

– أنت لم تره... لو رأيته لما لمتني على دموعي...

– أنا لا ألومك... إطلاقاً... على العكس تماماً... أنا...

– انه... يفتت الصخر... فما بالك بانسانة رقيقة مثلي...

– رقيقة؟ أنت رقيقة.

كفكفت دموعها... وإكتسب صوتها نبرة حادة...

– انه بعد كل شيء... يستحق ما جرى له... لقد داس أبواه على قانون المدينة... قانوننا المقدس.

– كفى... كفى... لاأريد أن أسمع شيئاً عن قانونكم... المقدس... انه يشعرني بالغثيان... والتقزز...

رحت أزحف مبتعداً عنها... بإحساس يقيني... بأني لن أستطيع... وحتى إذا استطعت فلاأريد... أن أغفر لها... إنها شاركت في إقتراف هذه الجريمة البشعة.

لاحقتني لاهثة حتى لحقت بي:

– هـ... هل... هل تحتقرني...؟

من شدّة إحتقاري لها، رفضت الإجابة.

– أنت تحتقرني... واضح أنك تحتقرني جداً... مع أنك لاتعرفه... لم تره حتى. ماذا لو كنت قد رأيته... وعرفته... آه...

– يكفي... إني عرفت ما فعلتم به.

شهقت وهي تكاد تختنق بدموعها:

– انه... إبن أختي...

– الأمير... المنافق؟

– لا... لا... الطفل... أقصد البدر...

– ويحك... ما الذي تقولين؟

أخذت تضرب الأرض بقبضتها، وقدميها... على نحو هستيري:

– خائنة... خائنة... خائنة...

– حقاً... أنت لكذلك...

– بل هي... هي... أختي... لماذا خالفت أوامر الكاهن؟

– أوامر الكاهن... أم قانون مدينتكم المقدس؟

– أوامر الكاهن هي قانون مدينتنا المقدس... و...

–إبتعدي... عني... إبتعدي... لاأريد ان أراك... أنا أبغضك...

ودفعتها بقوة... انقلبت على ظهرها، ثم استعادت حالها بسرعة وزحفت نحوي... إلتصقت بي وراحت تمسح بي:

– آه... لا... لاتبغضني... ثمة حقائق لاتعرفها... لو عرفتها... لغفرتَ لي. أنا واثقة انك ستغفر لي...

– لاتلمسيني... لاتقتربي مني... روحي هاتي ملابسي... لابدّ أن أخرج من هذا الكابوس... هيا... هيا... أسرعي...

وفي هذه اللحظة بالذات عاد صوت الكاهن يهدر:

– المعجزة... أيها الأخيار... المعجزة أيها المؤمنون الأطهار... لقد... تحققت المعجزة...

هو و و و و و...

ثغا القطيع بشكل متواصل لفترة غير قصيرة... نهض الرجل المريض منتصباً على قدميه. على الضد مما توقعت، أو بالأحرى رجوت وأمّلت إذ بدا على قدر غير قليل من الوسامة، ولولا ضيق في جبهته وإلتصاق حاجبيه وكثافة شعرهما بشكل يكاد يخفي عينيه، لتوسمت فيه، اضافة الى وسامته... النبل والشرف، لكزتني بمرفقها، وهي تقول وعيناها... مصوبتان نحوه:

– أنظر اليه... تمعن فيه... هل هذا بشر أم ملاك... آه... من لايفدي هذا الملاك الجميل بالروح... ناهيك عن إبن الأخت... آه... لو يسمح لي... بلثم قدميه... قدميه حسب...

تركتني... متوجهة... اليه زحفاً... بينما كان هو منحنياً على يدي الكاهن

المدودتين... يقبلهما... ظهراً وبطناً... ثم يمسح بها وجهه... ويعود يقبلهما... وبعدما إنتهت مراسيم الشكر والإمتنان... أو بعدما شبع منها الرجل الكاهن... أحاله الى العجوز القرعاء... التي باتت قرعاء تماماً، بعدما إنتزعت بيديها البقية الباقية من فروة رأسها... فألقى بنفسه بين احضانها بودٍ عارم... وإجلال عظيم... ثم راح يمسد رأسها ويقبلها:

– آه... لن أنسى ما حييت تضحيتك الكبيرة في سبيلي... لقد ضحيت بأغلى وأعز ماتملكين... أغلى وأعزّ ما تملك المرأة... لقد ضحيت من أجلي... بشعرك الذهبي... بشعرك الحرير...

آه... آه... شعرها الذهبي؟ شعرها الحرير؟ اية كذبة وقحة هذه... لقد رأيت شعرها قبلما يجتزه لها الكاهن وتأتي هي على ما تبقى منه... بوسعي أن أقول بيقين جازم وبلا أدنى خوف من السقوط في لغة المبالغة... ان شعر خنزير بري ممرغ بسائر محتويات بطنه أزهى وأجمل من شعرها وأكثر رقة... بيد أن السؤال الذي يكاد يصدع جدران جسدي ويلاشي عقلي، هو... لماذا يضطر هذا الأمير الوسيم... أول ما تعود اليه الحياة الى ممارسة الكذب. ولماذا يكون أول كلام نطق به... إختلاقاً بهذا القدر الفظيع من السفالة؟

– لأجلك... يا أميري العظيم... أضحي بكل شيء... حتى بأظفاري... هاك هاك... اقلعها... كلها... كلها... اقطع اظفاري العشرين... كلها...

شرعت تدخل انامها... الواحدة تلو الأخرى... في فم الأمير، ولا تخرجها إلاّ وهي مدماة، تقطر دماً أسود كثيفاً...

– كلها... كلها... لاتترك ظفراً واحداً... لئلا أخدش جلدك الرقيق... إذ أحك لك ظهرك... فتموت مرة أخرى... وأموت أنا... مليون مرة هيا... هيا... يا أميري الحبيب...

وإذ أتى أميرها الحبيب، على أظافرها العشرة، اخذت تحشو فاه بأصابع قدميها... والأمير الطائع المطيع المفدي... يمضغ الأظفار واحداً واحداً... وأنا انظر اليه مبهوتاً، دون أن أفهم أو أستوعب، فكرة التضحية بالأظفار بالذات... أو قيمتها وجدواها...

توجه الأمير، بعدها، نحو الحشد... مدّ لهم كفيّه... مباعداً بينهما ما

يستطيع. فأقبلوا عليه... يلثمونهما... واحداً بعد الآخر... وقد إنتظموا في صفين طويلين ملفوفين على نفسيهما. وكل من يلثم احدى كفيه... وبعضهم يخاتل ويخادع كي يحظى بتقبيل كلتا الكفين... يعود الى مكانه، مانحاً... صاحبه فرصة نيل هذا الشرف الرفيع، عدا الفتاة، التي لم ترتو من لثم الكفين... بالرغم من انها لثمتهما أكثر من مرة، وإنما أرتمت على قدميه... تزرعهما بالقبل... الأمر الذي حدا بالآخرين، طائعين محبين، أو مرغمين مكرهين، أن يعودا الى أميرهم... ويفعلوا فعلها... حتى لايظهر أحد أمامه... أقل طاعة وخضوعاً... وحباً... للأمير. من الفتاة التي لم تتردد في ذبح إبن اختها فداءً له... وبينما كان الآخرون ممن ينهون تقبيل القدمين يعودون الى اماكنهم... ظلت الفتاة وحدها... لاصقة باحدى قدميه... كذبابة جائعة سقطت على صحن دبس. أبصرت وجه الأمير... الوسيم... يتغير... يتغضن شيئاً فشيئاً. فأخذ يحرك رجله المطوقة... حركات خفيفة أول الأمر... ثم قوية، بعض الشيء، وبكل الإتجاهات. محاولاً تحريرها من الجسم اللاصق بها... ولكن الفتاة ظلت متعلقة بها. ليس هيناً طرد ذبابة لحوح من صحن دبس. إربدّ وجه الأمير الوسيم وإغتمّ. ثم... لم يلبث أن دبّ الضجر في نفسه. وإحتد، مع أنه اميرهم، يفترض... فيه أن يتحلى بطول الصبر... وسعة الصدر... ولكن لكل شيء حدوداً. وما من حال تبقى ثابتة... فقصر صبره... حتى كاد ينفد... وضاق صدره حتى... كادت اضلاعه تطبق على بعضها. فحرك رجله هذه المرة، حركة عنيفة كمن ينظف قدمه من قطعة طين، أو من قذارة ما لصقت بها... في غفلة منه. فسقطت الفتاة على مبعدة منه. شعرت بفرح عارم يغمرني... متشفياً بما جرى لها... وراجيا، من كل قلبي... أن يجري لها المزيد من الإذلال وعلى يد الأمير... أميرها الوسيم... بالذات... إلاّ أن الأمير اهملها تماماً، وتركها حيث هي، كأية نفاية... وسار نحو تل العباءات، الذي تهاوى وانكمش على نفسه، ولم يعد سوى مجموعة عباءات متساقطة على بعضها، أخذ يتناولها واحدة واحدة ويقذف بها الى السماء، فترتفع العباءة الى مسافة قريبة، ثم تنفرش... وتظل عالقة في الهواء... وتطير عباءة أخرى وتنفرش الى جانبها هي الأخرى... وتطير أخرى... وأخرى... وأخرى، حتى تجمع عدد كبير من العباءات الطائرة، مشكّلة بمجموعها، خيمة كبيرة سوداء، تحجب الشمس والهواء... وتخلق ليلاً

أسود خانقاً... ثم وعلى حين غرة، وبلا أي توقع... ارتعدت الخيمة واهتزت... واهتز معها الحشد كله وارتعد، حين صرخ أميرهم:

– حيّ... البدر حيّ.

وإنشقّ جراب الأسئلة، فتدفقت من كل حدب وصوب:

– البدر حيّ؟ مستحيل، كيف؟... كيف؟

– أتكذّب الأمير يا هذا... يا حثالة.

– حاشا لله... ولكنني طعنته بيدي... في قلبه... في قلبه تماماً.

إنطلقت صرخات الإستنكار والإستغفار... والتنصّل والإدانة من كل واحد في الحشد... مختلطة ببعضها البعض... فبدت اشبه بصرخات وأصوات مجموعة غريبة من حيوانات مفترسة... متداخلة. ممتزجة... بلا حدود بينها... ولا فواصل... ولا هوية... تميز اصحابها... ولكني وبالرغم من كل ذلك تبيّنت بوضوح، صرخة الفتاة ونبرتها الزاعقة، المبالغ في حماسها:

– اعطوني سكيناً... أقطع شرابينه، اعطوني سيفاً اقطّعه إرباً إرباً... أعطوني رمحاً أطعنه في قلبه... أعطوني... آه... أعطوني...

لم يعطها أحد شيئاً... ربما لأنهم لم يجهزوا أنفسهم بشئ مما تطلب... أو لأن المفاجأة أذهلتهم، مثلما أذهلتني، ولم يعرفوا ماذا يفعلون... أو كيف يتصرفون، غير أنها لم تيأس... إذ انها مدت ذراعيها وأفردت أناملها. فبرزت أظفارها... على نحو غريب... بدت أشبه برماح وسيوف وسكاكين في آن واحد... وبقفزة واحدة... حطّت عند العباءة الوحيدة المكومة على نفسها... أو على البدر الذي في داخلها... وأنشبت فيها كل اسلحتها وأنيابها... وراحت تنهشه نهشاً... وبين آونة وأخرى تتلفت الى الناس المتحلقين حولها... تستحثهم وتدفعهم الى مشاركتها في الوليمة:

– هيا... كلوا... هيا اشربوا... كلوا لحمه... اشربوا دمه... اقضموا عظامه... تعالوا... تعالوا...

وإذ توقفت عن قضم العظام... لتقذف بالكلام... أو تتوقف عن قذف الكلام... لتقضم العظام... تتساقط من فيها الذي إصطبغ بالدم نتف من اللحم وفتات من العظام... فتسرع الى لمّها ودفعها... ثانية الى جوف فمها...

ومثل مجموعة هررة، يكاد الجوع يقتلها، وقعت فجأة على عصفور مقصوص الجناحين... راحوا يفترسونه بشراهة. حتى إذا انتهوا منه، مسحوا أطراف أفواههم... بأكفهم السوداء، من آثار الدم، ومسحوا وجوههم السود من العرق المتصبب من جباههم الكلبية.

تقدمت الفتاة... بزهو وخيلاء... كمن أدى عملاً بطولياً خارقاً. وبات أهلاً لمجد وثناء، مابعدهما مجد ولا ثناء، من الثلاثة، الكاهن اولاً... ثم العجوز ثم الأمير... أميرها... الذي لم تكتف معه بتقبيل اليدين، مثلما فعلت مع الاولين، إذ سقطت مرة أخرى على قدميه... منتقلة من اليمنى الى اليسرى... ومن اليسرى الى اليمنى:

– سيدي وأميري... إنتهى... تلاشى... الى الأبد... وأنا...

أدرت وجهي... وأغلقت أذني... فلم أعد أطيق النظر الى وجهها المشبع بالخيانة... ولا الاستماع الى صوتها الفائح برائحة الدم...

متقززاً من كل ما ومن حولي... نظرت الى المكان الذي وقعت فيه الجريمة... لعله المكان الوحيد، النظيف، الذي يمكن أن يستغرق فيه المرء. بدا لي اني ارى عموداً مصنوعاً من الضباب يتصاعد... تبعثه... بناظري وعقلي وقلبي... وما هي إلاّ ثوان حتى انقشع الضباب عن دائرة... شبه متكاملة... أو بالأحرى قيد التكامل... حققت من داخلي... البدر... آه... البدر... يكتمل... يأبى إلاّ أن يكتمل... وبالرغم من أن صوتي الداخلي الصارخ... لم يتجاوز جدران جسمي... فقد خفت أن يسمعني أحدهم... فرحت أتلفت بخوف وقلق... وحمدت الله... أن لاأحد... حافل بي... أو بدائرة الضوء التي تتكامل... فالكل ساجد أمام الأمير... تحت قدمي الأمير... على نحو أكثر دقة...

تشكل الضوء... على هيئة بدر... فعلاً... إلتصق بسقف الخيمة... خيمة العباءات المفروشة في الفضاء. ثم اخترق الخيمة وليلها... دون أن يشقها... وأخذ يصعد... ويصعد... مبتعداً... الى السماء الأرحب... والأوسع... والأبعد... بقعة ضوء مموهة... تكاد تضيع من عيني... فتساءلت بريبة حقيقية، هجمت عليّ... أحقاً طار البدر؟ نجا منهم فعلاً؟ أم أن الوهم... يجسد لي أملاً واهياً... ولكن مصيرياً لحوحاً، يعتمل في داخلي... ويستحوذ على كل كياني... أن

يكون هذا الطفل أقوى من كل صنوف الموت التي يتعرض لها... أو يعرضونه لها... ولكي أتثبت من حقيقة الأمر... أتأكد من الحدود القائمة بين الوهم والأمل... بين الواقع القاتل الوحشي الذي أعيشه فعلاً... وبين الحلم الذي أتمنى أن أحياه واقعاً بديلاً... سألت جذعاً ممدداً الى جانبي، بعدما أمعنت النظر في ملامحه... وتوصلت الى قناعة بأني يمكن أن أثق به... وأطرح... سؤالي عليه ببراءة:

- ماذا حدث للطفل... يا صاحبي...

أجاب على سؤالي، كمن صعقه تيار كهربائي، بسؤال يعلن عن جهل... أو... تجاهل تام...

- الطفل؟ أي طفل...؟

قلت بنبرة واضحة:

- الطفل البدر... البدر ليله تمامه.

ثم أضفت بمودة... محاولاً تهدئة روعه... ومطمئناً إياه بأني لا أرمي الى سرقة افكاره والوشاية به... كما قد يتبادر الى ذهنه:

- لقد رأيته... مثلما رأيته أنا... ياأخي...

سقط في إرتباك شديد. كما لو كان قديساً ضُبط في عمله زنا بالمحارم:

-لا... لا... لم أرَ شيئاً أي شيء.

- أنت تكذب... تكذب بسفالة.

رماني بحفنة تراب، وإندس بين الآخرين زاحفاً مثل صلٍّ أسود... دنوت من آخر... كان مستلقياً على ظهره... يراقب السماء خلال ليل العباءات... ساهماً... وهو ينظف اسنانه بظفره. طرحت عليه السؤال نفسه، أجاب دون أن يلتفت نحوي أو يتوقف عن تنظيف اسنانه، كأن لم يشعر بوجودي... ولا سمع سؤالي أساساً:

- ضاع... الطفل ضاع... الأمل ضاع... أملي ضاع... أمل الجميع ضاع...

أدركت أن الرجل يهذي... وهو يحاور نفسه. بيد أني لم أطق صبراً...

- أملك؟ أمل الجميع... لقد رأيتك تمضغ لحم أملك... وأمل الجميع...

وكالهارب من تنّين يصليه حمماً... إبتعد مذعوراً:

- دعني... دعني... مَن أنت؟ مَن تكون؟ ماذا تريد مني... ما شأنك بي...

وظل يتلوى بين أقرانه... حتى إختفى عن ناظريّ... مختبئاً بين الجذوع الممددة على الأرض، جذعاً آخر، لاسبيل الى تمييزه أو التعرف عليه تسلقت الفتاة قامة أميرهم، أميرها... بولَه، وأخذت تتلمس وجهه:

- سيدي، روحي فداك، ما لي أرى وجهك لايزال شاحباً.

- أشعر أن الخطر... ما زال يحدق بي، مختبئاً في مكان ما...

أجاب الأمير بنبرة أسى... وعيناه تجوبان كل مكان. أسرعت الفتاة... تنفي ذلك... بقوة وتبين... كما لو كانت هي شخصياً بعضاً من مصادر... ذلك الخطأ الذي يعنيه:

- لا... لا. لاخطر يتهددك... صدقني ياأميري... صدقني...

ويبدو أن الحرارة التي انبثقت من نبرتها... جعلت الامير يقول:

- أصدقك... أصدقك.

- آه... يا حبيبي... آه... ذلك كل ما أتمنى وأرجو في حياتي...

حبيبها؟ وأنا الذي كنت أحسب أنها تحبني... ولاتحب سواي، كتمت غيضي وقلت من بين اسناني... معزياً نفسي... ليكن... ما لي وحب مخلوق بهذا القدر من البشاعة... وأضفت بكره شديد... وأنا آراها، قد امتزجت به... بأميرها، في قبلة طويلة... وعناق يلاشى بينهما الفراغ.

أشحت بوجهي عنهما... ولكن ما هي إلاّ ثوان... حتى صرخ الكاهن:

- البُنّيه... البنّيه...

وتعلقت العيون كلها، ومن بينها عيوني بالفتاة... فإذا السواد عنها... ينقشع... ويعود اليها بياضها... الذي لم يلبث ان أخذ... يصفر ويصفر... ويشحب حتى غدا بلون السلّ.

- انها تذوي... البنت... تذوي... يا ناس.

هدر الكاهن ثانية. كانت الفتاة تذوي فعلاً. مثل تمثال من الشمع أمام جسم متوقد... علا صوت الكاهن، هذه المرة، مولولاً... منتحباً:

- ابنتي... يا ناس... إبنتي... آه... افعلوا شيئاً من أجل ابنتي. أنقذوا لي إبنتي...

لكمت المرأة العجوز فاه وهي تزأر:

- أخرس... إنها ابنتي أيضاً... مثلما هي إبنتك... وأنا قد وهبتها... قرباناً... لأميرنا...

وقعت في دوامة مشوشة من تفكير أشد تشوشاً... إبنتها... إبنته... يعني هي زوجته... زوجة الكاهن... ثم... ثم... هي... الفتاة... الداعرة أخته... أخت الأمير... ولكن كيف؟ أخته وتلك القبلة النارية الماجنة التي أهارت جبل الجليد... اذابته في بحر ثوان؟... ألا... ماأغرب ماأسمع وأشاهد...

تساقطت الفتاة، عند أقدام الأمير كومة عظام محشوة في جلد. صرخ الكاهن:

- لقد شربها... ويلتاه... شربها... شرب روحها... آه... آه... تدبّروا... أموركم... يا ناس... انقذوا ارواحكم... يا...

أطلق الكاهن، أثر تحذيره... وقبلما ينهى تحذيره... ساقيه للريح... ولكن ذراعي اميرهم الطويلين... أطبقا عليه. ككماشة من حديد وأعاده اليه... ثم طوقه بقوة وراح يعصره عصراً... لم يكن في جسد الكاهن الناحل قدر كبير من اللحم، بقي عظامه التي راحت تطقطق كمجموعة اعواد يابسة. خرج منه أنين ضعيف... لايكاد يسمع:

- آه... انقذوني... انقذوا كاهنكم المسكين... الذي يخدمكم منذ خمسين عاماً... آه... آه... آ...آ...

لم يحرك أحد ساكناً... فقد خنق اميرهم بسرعة... بقية كلامه... مثلما خنق أنفاسه... أو بالأحرى إمتصها... بشفتيه المطبقتين على شفتيه، ثم قذف بقايا الجسد المفتت... بإستياء شديد... أمام قدمي العجوز القرعاء...

- يابس... ليس فيه إلاّ القليل من الدم.

- ولكن فيه الكثير من المعرفة... والكثير الكثير... من المكر والحيل، وأنت قد تشربت كل ذلك... وصرت جديراً... بأن تكون كاهننا... الأوحد الممجد... الى الأبد...

قالت ذلك... وألقت بنفسها على قدمي كاهنهم الجديد...

تمنيت من كل قلبي، ودعوت الله في سرّي أن يحقق لي امنيتي هذه... ان يفعل بها... بأمه... ما فعله بأخته وأبيه... أن يمتصها ويلقي ببقاياها نفاية للكلاب، وأن يظهر من بين الحشد، أو من مكان آخر، بقدرة قادر، من يفعل بالأمير نفسه ما يفعله هو بالآخرين... وأن يظهر ثالث ورابع... وعاشر وألف... حتى يأتي بعض هذا القوم الغريب على بعضه، وينقرضون الى الأبد... وتتطهر الأرض والذهن منهم ومن أمثالهم... فيتلاشى ليل العباءات الأسود الذي يحجب السماء والنور والهواء ويعود البدر... يختال بضوئه... يحيل الليل نهاراً آخر...

ولكن... يبدو أن خيبة الأمل قد عقدت معي... ومع كل أمنياتي ورجائي وعلى الرغم مني، زواجاً كاثوليكياً... لاسبيل فيه الى الفراق المؤقت، حتى ناهيك عن الطلاق، أو ماشابه. إذ إنحنى الأمير الكاهن على العجوز القرعاء... وعانقها بحنان مفرط...

- لا. يا أمي الحنون لا. لاينبغي أن تركعي على قدمي إبنك... إن ذلك كفر بالامومة... خرق لقدسية الأم ومكانتها.

قال ذلك... وانهال على يدي وقدمي العجوز بالقبل. ولكن العجوز... القرعاء التي لم تبق شعرة واحدة في رأسها... أقسمت:

- وحق كل شعرة أحالها الرب، رافداً مدّك بالحياة، يا كاهني المقدس... لن تفعل ذلك...

- دعيني يا أمي المقدسة، دعيني... فأنا ابنك قبلما أكون كاهنك...

- بل أنت كاهني وأبني وسيدي وأميري وأبي وأمي... وكل ما هو مبجل ومقدس في حياتي... أرجوك... أرجوك...

رضخ الكاهن... إبتعد عن العجوز القرعاء، بضعة أشبار، أنحنى أمامها بضع مرات... ورفع يديه... مستسلماً... طائعاً:

- أمرك... يا سيدتي... أمرك... أنا طوع أمرك...

سرت في الحشد موجة همس مسموع:

- يا له من أبن مطيع...

– ما أشد رأفته بأمه.

– قديسان... انهما قديسان حقاً...

وزعق صوت جهوري:

– تحيا الام المقدسة.

فتردد الصدى بين الحشد... زعيقاً أقوى:

– تحيا... تحيا... تحيا...

ولكن العجوز القرعاء... زعقت زعيقا أشد... فطغت على الأصوات جميعاً:

– لا... لا... يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس...

فتبعها الحشد القطيعي بسرعة غريبة:

– يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس.

– يحيا... يحيا... يحيا...

ساد الجمع لوقت غير قصير، هرج ومرج... هتافات... صرخات... صيحات... نداءات... زغاريد... تهاليل... تصفيق... هلاهل... من كل حدب وصوب... حتى أشار الكاهن، بيده النحيلة الطويلة... إشارة خاصة فسقط الجميع على وجوههم ثانية، بمن فيهم العجوز القرعاء، تأمّل الكاهن الجمع هنيهة، وإذ أطمئن الى الحال... راح يتجول بين الاجساد الممدودة على الأرض... وأنشز على بعضها بقدميه... قافزاً فوق بعضها، بشموخ وكبرياء...

إشتد بي الهلع... وإحتواني الرعب... ماذا لو داس على ظهري، أنا الآخر، بقدميه اللتين تقطران دماً؟ ماذا سيكون ردّ فعلي؟... كيف ينبغي أن يكون؟ و... و... وماذا بوسعي أن أفعل وأنا في هذا الجمع المسحور، ... الذي سلبت قوة ما... إرادته، حين سلبت عقله... واستحال جمعاً متوحشاً، لايتورع عن شيء... يحركه مخلوق شاذ تقوده رائحة الدم... وشهوة القتل؟ لاشيء. لابُدَّ أن أقرّ بضعفي. ليس بوسعي أن أفعل شيئاً، غير أن أبتهل الى الله العلي القدير... وأصلّي... بكل ماإفتقر اليه من حرارة الإيمان... ان يشملني، رغم ذلك، برحمته الواسعة... ويحميني تحت جناح عنايته الإلهية... ويعمى عنيّ بصره بقدرته الخارقة... ربي... إلهي... اعمِ عني عين كل ظالم... وهذا الظالم بالذات...

فهو خلاصة كل ظلم العالم وظلامه وقسوته....

ظللت أردد، في سري، كل ماأحفظ... أو بالأحرى كل ما تسعفني به الذاكرة المرعوبة المشوشة... من ادعية وآيات وأقوال و... و... وأنا أدفن وجهي في التراب... أرقبه بخوف متعاظم، من زاوية عيني... مختنق الأنفاس، واجف القلب... مرتعد الأوصال...

لا أدري كم طال الزمن... فقد كنت مقذوفاً خارجه... مشلولاً، عاطلاً عن أية قدرة على الإحساس بخطواته... حتى... أبصرته يعود الى مكانه... فتنفست الصعداء....

– ارفعوا رؤوسكم...

صاح بالجمع الراقد، فارتفعت الرؤوس مباشرة... كما لو كانت رؤوس دمى يحركها نابض آلي:

– افتحوا عيونكم... افتحوها جيداً.

بسرعة وبالحركة الآلية نفسها، جحظت العيون... ترنو الى المجهول.

– حدقوا في عيوني... في عيوني تماماً.

واتجهت العيون... الى عينيه المفتوحتين بجرأة تقرب من الوقاحة.

– لا، لا، لاتدهشوا، ثبتوا عيونكم في عيني... أجل... هكذا... هكذا...

شرع الكاهن، يؤدي بيديه حركات بهلوانية، فتساءلت بيني وبين نفسي... ياترى ماذا ينوي أن يفعل بهم... هل يمارس معهم مزيداً من طقوس السحر... ليسير الى اقصى ما يستطيع في سلب عقولهم؟ أم يعمد الى تنويمهم مغناطيسياً... ليلغي البقية الباقية من ارادتهم ويسهل قيادهم ودفعهم الى تنفيذ مهمة أخرى... من المهام الشريرة التي يسوقهم اليها مسوقاً؟ على أية حال، وأياً كان الأمر، ينبغي أن أتجنب النظر الى عينيه... إنّ لعينه، لابُدَّ أن اقرّ في النهاية، تأثيراً غريباً ينطوي على قوة روحية طاغية... يصعب الخلاص من أسرها.

أخذت ازوغ ببصري عنه... أغمض عيني تارة، أسدّهما بكلتا يدي تارة أخرى... أدقهما في الأرض... وبين الفينة والفينة. أختلس اليه النظر لأراه...

لايزال مفتوح العينين... يصبوب سهام نظراته وسمومها الى العيون المحلقة به، متنقلاً من عين الى عين... دون كلل أو ضجر....

- أنتم قوم خطاة...

يضعها في عيونهم، التي لابُدَّ أنها قد اتعبها، مثلما اتعب اصحابها، طول التحديق والامتناع عن الرمش، دون اي وجل، وبلا أدنى اهتزاز في نبرات صوته... ولم يكتف بذلك، بل أردفها بعدة طلقات:

- أنتم مثقلون بالخطايا... والذنوب... والجرائم.

حسبت أن الاشلاء ستطاير، لهول وقعها، قنابل على رأس الكاهن، أقوى وأشد فتكاً، من التي ألقاها... فتمحقه من الوجود كردّ فعل طبيعي... لهذه التهم التي يلصقها بقوم، يعتبرون انفسهم أكثر طهراً ونقاءً من سائر قديسي الأرض مجتمعين.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث... بل، على الضد، إذ أن العيون أسدلت أجفانها في ذلة، وراحت تدفن نفسها وأصحابها تحت الاقدام. مستعدين لتلقي المزيد من الصفعات على وجوههم ومن الركلات على مؤخراتهم، صاغرين. ولم يبخل عليهم كاهنهم المقدس:

- انتم تأكلون المال الحرام. وتزنون بالمحارم... و... تخفون الأسرار...

لم يجرؤ أحد على رفع رأسه... رددت في سري... إزداء الصمت السخيف الذي ساد... حقاً... "مالجرحٍ بميتٍ إيلام".

إنبرت العجوز القرعاء:

- صدقت أيها الرائي العظيم... صدقت أيها الكاهن المقدس... اننا كذلك... اننا كما تقول.

سرى اعترافها بين الحشد الميت، سريان النار في الحقل اليابس فالتهب الجميع... صارخين... زاعقين... مولولين... ملقين انفسهم باقصى درجات الإحساس بالذنب... في نار الإعتراف... مصممين... على الإحتراق في أتونها، صادقين وكاذبين:

- صدقت... اننا كذلك... نحن كما نقول...

في الوقت الذي كان الحشد ينتظر من كاهنه الغفران والسماح... أجاب هذا بسرعة...

- وأنا لا أريد قوماً كذلك... لا اريد قوماً مثلكم...

قالها كمن يقول... أنا لا اشتري بضاعة فاسدة، ثم لملم عباءته وادار لهم ظهره... بطريقة تمثيلية بارعة... لايقدر عليها إلاّ ممثل بلغ غايته في التدريب والاتقان والابداع. فاحبط بيد الجمهور، وجاء الانقاذ مرة اخرى من يد العجوز القرعاء... إذ تشبثت به متوسلة:

- سيدي... لمن تتركنا... من لنا سواك؟

رددت الجوقة وراءها بصوت واحد:

- لا أحد... لا أحد...

فتحمست العجوز القرعاء:

- سيدي طهّرنا... أعد خلقنا من جديد... اجعلنا كما تريد...

تمهل الكاهن... توقف هنيهة... مفكراً، ثم التفت اليهم... اطلقت العجوز القرعاء زغردة... إذ لمحت ظلال ابتسامة رضا على شفتيه. وسرعان ماإنطلقت. عاصفة من الزغاريد والهلاهل... تصم الآذان بهديرها المتواصل... حتى اسكتها الكاهن باشارة من يديه:

- اتعرفون الطريق الى التطهير...

تعالت الأصوات.

- نعرف أنها شاقة ومضنية...

- ... إنها طويلة... مزروعة بالأشواك. نسير فوقها حفاة.

- ولكننا... أهل لها...

- ستجدنا... كما تتمنى... أن نكون.

- إختبرنا... إمتحنا...

تساءل الكاهن:

- أتدرون... بمَ تبدأ والى ماذا تنتهي؟

تعددت الاجوبة وتباينت... تشعبت الآراء واختلفت... وأخذت تتوغل في

صحاري الجهل... وهو صامت ازاءها... لايحرك سوى سبابته ان لا، لا، لا، حتى عجز الحشد عن الأجابة الصحيحة... واقروّا بعجزهم... وصاروا يرنون اليه... بعيون ملؤها التوسل والرجاء... أن يخلصهم من هذه المتاهة التي سقطوا فيها... بينما راح هو يطيل صمته... يطيل عذابهم وضياعهم... قبلما يشفق عليهم ويقول:

– تبدأ من العين... وتنتهي بالروح.

لم يزد ايضاحه... حيرتهم إلاّ حيرة... وجهلهم إلاّ جهلاً... وقد ادرك هو ماأحدثه فيهم من إرتباك... وإضطراب في النفوس والعقول:

– عبر عيونكم... أبصر أرواحكم... أقرأ صفحاتها وسطورها... ومافيها من كلمات وحروف... لاتخفى عليّ خافية... اخطف الخاطرة التي تمر ببال احدكم، قبلما يدركها صاحبها نفسه، اكشف النوايا على الخفايا، اسمع الهمسة الخرساء التي تحملها ألسنتكم قبلما تبلغ اطرافها. اسمعها وهي تتلجلج في صدوركم... أو تختنق في حناجركم...

شمل السكون الجميع... وساد صمت مشحون بالتوتر الأخرس... بتُّ اسمع خلاله العيون... وهي تبادل النظرات... كرسائل شخصية بحت يتبادلها عشاق في مناخ قبلي متخلف مقيت... تسأل وتتفسر... عما يتوجب فعله... وكيف ينبغي فعله...؟ ولكن الصمت طال... دون أن يجرؤ أحد على خدشه... حتى تطوعت العجوز القرعاء بنسفه:

– ما بالكم أحلتم عيونكم الوقحة ألسنة جبانه؟ اتظنون انفسكم قادرين على خداع كاهننا المقدس... الرائي الأعظم...

– خاب من يعتقد ذلك... كل دواخلكم وما تضمرون اوراق مكشوفة أمام عيني... ولكني افضل ان اسمعها منكم... كي تتطهروا منها... كي تغتسل ارواحكم من ادارتها... بماء الاعتراف المقدس، وتعودوا بعدها... أناساً مقبولين في حظيرة الأعلى...

وأشار إشارة خاصة الى السماء... فخرّ إثرها الكل ساجدين، فنزل سؤال العجوز القرعاء... سياطاً خرافية عليهم...

– من يخف شيئاً... ليتقدم للإعتراف به.

فهبَّ الجميع، يتدافعون بالمناكب... يتنافسون... للإستحمام تحت شلالات الإعتراف وحممه، واحداً بعد الآخر... وواحداً قبل الآخر. فإستمعت وأنا في مخبأي الى إعترافات يشيب لها شعر الرأس... تخجل منها الآذان... ينبو عنها أرذل انسان... يترفع عنها حتى الحيوان، بعضها صحيح كما يبدو... وبعضها مختلق واضح الإختلاق، وكل من ينهي إعترافه، تقتلع العجوز القرعاء، شعرة من راسه، تغرسها في شعرها... وفي أغلب الاحيان تقتلع أكثر من شعرة من الرؤوس التي اقترف اصحابها أكثر من ذنب أو إثم. فتلبست رأسها القرعاء بالشعر حتى غطاها... شعور مختلفة الالوان... متباينة الاحجام. فبدت كساحرة شريرة من الساحرات التي تتراءى في الأحلام... أو... تظهر في الأفلام... بينما غدت الرؤوس الاخرى، أو معظمها، عارية ملساء... إلاّ من بقع دم متخثر... تشكل نتؤات صغيرة... توزعها هنا... وهناك... وبعضها غطاها الدم الاسود... تماماً...

ضاقت رأس العجوز بالشعرات التي زرعها فيها... فراحت تزرعها على جسدها... تدخلها في مسامات جلدها المتقرن... حتى تسربلت وإختفت تحته... وصارت غولة حقيقية... ومع هذا صاحت:

– هل من مزيد؟

كدت أصرخ بها من مخبأي بصوت عال... هل بقى فيك مكان للسواد. بيد أني خنقت صوتي في الوقت المناسب... خشية ان يكتشف... أمري...

عانقها الكاهن... وراحا معاً يرقصان... لم اسمع ما قاله لها، ولكني... سمعتها تقول له...:

– كنت واثقة انك ستعوضني ما اعطيتك اضعافاً مضاعفة. آه كل هذا الشعر... كل هذا الشعر الذي جمعته لي... لكم أنا فخور بك...

– سيكون ثمة المزيد... يا أمي... المزيد... لو رغبت.

– ذلك ديدنك... منذ عرفتك... من يمنحك قطرة دم نغرقه في بحر من الدم...

– ساغرقك يا أمي... اغرقك في فضاء من الشعر...

توقف عن مراقصتها فجأة... وصرخ صرخة عظيمة...

– هل ثمه من لم يقل كل ما عنده. ليتقدم قبلما أضع اليد عليه.

– أنا... آ آ... أنا... سيدي الكاهن...

علا صوت ضعيف... متردد... ثم أعقبه زحف جسم... تبينت فيه، إذ أمعنت النظر... الرجل الذي فرّ مني هارباً حين سألته عن مصير الطفل... سقط على قدمي الكاهن:

– لم أقل... كل ما أعرف... غفرانك سيدي... غفرانك...

ركله الكاهن بغضب:

– لاتدنس قدمي... قبلما تتطهر...

تراجع الرجل الى الوراء، ذليلاً... مرتعداً، وهو يضرس كلاماً. لايسمع منه حرف واحد... بينما راح صوت الكاهن يهدر...

– تكلم... قل... كل ما عندك...

– آ... آ... البدر... سيدي الكاهن... البدر.

إربدّ وجه الكاهن... وإرتجف... داخل عباءته الكهنوتية:

– ما به... تكلم...؟

– ص... ص... صعد.

– صعد؟ صعد الى أين؟

– إ... إ... إلى السماء، سيدي، تشكل على هيئة سحاب واخترق الخيمة و... و... و... صعد...

إنقضّت عليه العجوز الغولة، بسرعة خارقة:

– وتخفي عنا سراً كهذا...؟

راحت تعصره عصراً... حسبت أني سأرى بعدما تفك عنه ذراعيها كومة عظام مفتتة... فأبصق عليه... وأشفي غليلي من هذا الجبان القذر... إلاّ أن الغولة لم تترك منه شيئاً... أي شيء... فصرخت مرعوباً بصمت... ياه... إنها أبشع من إبنها...

مدّ الكاهن يده نحو الخيمة... وبقدرة جبارة... مزقها. ثم جمعها ولفّ خرقها كرة كبيرة... ورماها بعيداً... فبانت السماء... صافية مليئة بالنجوم المتوقدة... والبدر يختال بينها بشوشاً ضحوكاً مشعاً. راح الناس يغضون انظارهم،

يغطون عيونهم... يديرون وجوههم مصعوقين... خشية أن يعمي النور أبصارهم...

– آه... انه هناك... هناك حقاً.

– انه... يستهزيء بنا جميعاً... يسخر منا...

– آه... اقتلوه... اقتلوه...

– انه عال... لاتطاله يد.

صاحت الغولة:

– يد الكاهن تطاله... لاشيء يستعصي على الكاهن... لامستحيل أمام الكاهن... لاتيأسوا... لاتيأسوا...

رفعت الكاهن على يديها... أحاط بهما نفر منهم... حملوهما معاً بينما تساقط بعض منهم على بعضهم... مشكلين تلة صغيرة من اجسادهم صعدتها الغولة... والكاهن فوق يديها... وبعد محاولا ت عديدة مضينة... اكتشفوا عبث محاولا تهم ولا جدواها... فتصاعدت صيحات اليأس والعجز... من جديد... في حيرة شديدة:

– ماالعمل... ماالعمل...؟

– كيف السبيل الى اقتناصه...؟

– انه لايزال يسخر منا... ما الحل؟

قالت الغولة وهي تشير الى الكاهن الذي ترك الحشد. وبدا يسير وحده... نحو الأمام:

– اتبعوا الكاهن... سيروا وراء الكاهن... هو من يرشدنا الى العمل... هو من يدلنا الطريق... الى الامام يا قوم... الى الأمام.

سار الكاهن كالطاووس يختال زهواً... واثقاً من نفسه، على ما يبدو... الى حد خرافي... وسار الحشد خلفه... كمجموعة عميان يقودهم مبصر... وتوقفوا فجأة، حتى كادوا يصطدمون به... إذ توقف امام الكرة التي صنعها من لبس العباءات... فك خرقها مجدداً... وفرشها... فوق رؤوسهم... وارتموا جميعاً تحتها... صاح الكاهن الطاووس بنبرة... إنتصار:

- هذا هو الحل... هذا هو العمل... لايرانا... ولا نراه...

ضحكت طويلاً لهذا الحل... الذي بدا لي شكلاً من أشكال الموت الجماعي المجاني. خرجت من مخبأي... كانت الساحة قد فرغت تماماً، ولم يعد ثمه غير جثة الكاهن الكبير... وجثة الفتاة، فتاتي، أو بالأحرى التي كان يمكن أن تكون فتاتي لولا خيانتها القذرة... نفضت عن جسمي الاتربة، فتذكرت التي مازلت داخل العباءة... عباءتهم السوداء... وانني عار... فرحت ابحث عن ملابسي. التي لاادري أين أخفتها... الكلبة، ولكني سرعان ما أقفلت عائداً الى مخبأي. إذ أبصرت مجموعة غفيرة من القطط... تعدو نحو الجثتين في سباق إنتحاري... إلاّ أنها لم تكد تنشب مخالبها وأنيابها فيهما... حتى اقبلت من بعيد مجموعة لاتقل عنها عدداً، من الكلاب... كلاب ضخمة... سريعة... كأنها مجموعة خيول نافرة... فدخلت مع القطط في صراع لم يطل امره... ولكن تميز بالشراسة والعنف... واسفر عن سقوط عدد غير قليل من الجثث. وحسم الصراع لصالح الكلاب... التي راحت تنهش الجثث المتساقطة من كلا الطرفين... دون تمييزا أو تفريق بين جثة كلب أو جثة قط.

وبعد هنيهة قصيرة وقبلما تشبع الكلاب جوعها وتروي غليلها من لحوم ودماء... اعدائها وانصارها على السواء... هجمت اسراب من الذباب فنشبت الحرب هذه المرة طاحنة ضروساً، بين الكلاب المنتصرة وبين اسراب الذباب المهاجمة، التي اتسمت هجماتها بالضراوة والشدة والبأس و... الخبث ايضاً... إذ راحت تلتصق بعيون الكلاب حتى تكاد تفقأها وبذيولها... وبما يعقب الذيول، من أشد المناطق حساسية، حتى توشك أن تثقبها وتدخلها... فولّت الادبار... وهي تعوى... وتشكو... مكتفية من الحرب... بغنيمة... الهزيمة...

غير أن اسراب الذباب، وبعدما فرّ العدو الذي كان يوحد... صفوفها، تفرقت، ودخلت معركة شرسة أخرى، معركة داخلية هذه المرة، يفتك بعضها بالبعض... ينهش بعضها بعضاً... حتى صفيت الى النصف... ولم يلبث النصف ان صفي الى الربع والربع الى نصف الربع، ونصف الربع الى نصفه... ولم تبق ثمة غير مجموعة صغيرة... نال منها التعب والانهاك... واثقلتها الجراح... فتهالكت... على نفسها... غير قادرة على الحراك... ثم خمدت في مكانها...

هي الأخرى...

ظلت الجثتان، جثة الفتاة وجثة الكاهن، مرميتين في مكانهما... حيث كانتا... دون أن تمسا بضرّ... وعلى جانبيهما... تناثرت جثث... وأشلاء... لا عدّ لها... ولا حصر.

٢٤-٩-٩٩٢ بعقوبة

الموت سداسياً

مدخل

ها أنا ذا أحمل حريتي على أكتافي ثانية... وأعود بها وبنفسي... المشتتة... المتشظية، الى مدينتي... التي سلخوني منها... وسلخوها مني، قبل زمن سرقت تفاصيله... ودقائقه... ولم أعد أدري ... أهو زمن طويل... طويل طول عمر الإضطهاد والاغتراب... أم هو قصير... قصير... قصر ومضات الحرية في دروب الاوجاع... قالوا لي... خلال ابتسامة مشوهة... كشفت عن اسنان صُفر... متسخة... بقّعها النيكوتين وترك فيها... حفراً وتسوساً... لاتخطئهما العين، وبنبرة انتصار مغرور:

- خذها... ايها الفتى... خذ حريتك... اننا نعيدها اليك. لقد اضطرتنا ظروف خاصة... الى وضع اليد عليها وحجرها فترة من الزمن، إذ أنك لم تحسن التصرف بها... حين كانت في حوزتك ونأمل ان تكون الفترة التي قضيتها في ضيافتنا قد علمتك... اموراً لم تكن تعلمها، هيا... اخرج هيا... هيا... ولا تدعنا نر وجهك... مرة أخرى...

ووجدت نفسي... مقذوفاً الى الشارع.

١-١- نصان قانونيان وبضعة شروح غير قانونية .

١-١-١- نص مقدس ، وعصري جداً .

تنص الشرائع السماوية والأرضية ايضاً، على ما يأتي:

"إنه... من حق السلطة السماوية والأرضية، التي هي ظل للأولى ووجه من وجوهها المتعددة... ان تضع كلتا يديها على

الأموال المنقولة وغير المنقولة، التي يرثها افراد... لايؤهلهم القانون[1] للتمتع بما يرثون"[2] إنتهى".

١-١-٢ نص غير مقدّس أكل عليه الدهر و...[3]

"إذا قيّد رجل رجلاً اخر، بسبب قضية لايعرف عنها...(المُقيَّدْ) شيئاً. ولم تثبت علاقته بها. فعلى الرجل الأول أن يتحمل أي جزاء يترتب على القضية" إنتهى.

١-٢- ملايين الأميال تقطع بخطوة ، خطوة واحدة .

"مثل صيني قديم"

ولكن حريتي... أيها السادة... لم أرثها من أحد، لأنها، ببساطة شديدة، ليست ملكاً لأحد... ولا من مخلفات أحد، لكي تمارس التنزه فوق جسور الوراثة... أو التنقل عبر قنوات الملكية... هل استورث احدكم أو سوف يستورث... الهواء الذي تتنفسون؟

حريتي يا... هؤلاء... هواء... تدفق ويتدفق باستمرار من زنزانات الطغاة وسجونهم... في العالم... ومأأكثرها... ومأأكثرهم...! ليلغي صحارى العبودية... من على وجه كوكبنا. ويزج الاصابع الاخطبوطية، التي تطبق على أنفاس الإنسان... حريتي... يا هؤلاء ويا اولئك... نور... تدفق شلالاً... قومياً عنيفاً... منذ بدء الخليقة... من طيات هذا الكون... ومجاهله... ليمتص... ظلمات هذا الكون... ويضيئ... مخابئه وخفاياه... ليستضيئ به الإنسان، في سيره الدائب... نحو الانسان.

(١) القانون الذي تسنه السلطة السماوية، وتطبقه لصالح السلطة الأرضية، أو بالعكس.

(٢) كأن تكون عقولهم مسكونة بجرثومة ما. أو أن تكون رائحة الحليب لاتزال تفوح من افواههم، ولم تصرعها بعد رائحة الخمور... والتبوغ... أو لم تغتسل جيداً بشلالات الخطب السياسية الدبقة في خضم بحور المريدين الهائجين أو الخائفين حسب الطلب، أو اي سبب آخر، تراه كلتا السلطتين، أو احداهما فقط، كافياً، لاغتصاب حق لم تمنحه اية واحدة منهما.

(٣) يرجع هذا النص الى ما يقرب من أربعة آلاف سنة... المادة السابعة عشرة من قانون "ليت عشتار" الذي حكم في العراق من (١٩٣٤-١٩٢٤) قبل الميلاد.

وإذ حـاول البـعض مـنكم... ان يسـتـأثروا بالنـور وحـدهم... ويحنّطوه في متاحفهم وقصورهم... ويغلقوا عليه الأبواب. ويقيموا عليـه الأسوار. والأسيجة البشرية الشائكة...

وحين حاول آخرون، حمقى مثلكم، أن لايدعـوا سوى مناخيرهم تعبّ الهواء... حمل اناس... بسطاء... شجعـان... ارواحهم ومـآقيـهم فـوق راحـات ايديهم... يحفرون وينقشون على وجه الزمن تاريخاً... جديداً للإنسان... وهم يسيلون حباً في الهواء... ويذوبـون عشقـاً للنور... فحطموا القمقم... وانطلق الهواء... وتدفق النور.

وإن كان لابد ان أرثها من أحد... فقد ورثتها منهم. من أولئك الذين سكبوا دماءهم. ينابيع زيت... ترفد الشعلة التي اجّجوها. ورفعوا جلودهم رايات... تلو رايات... للموكب الذي قادوه...

أتريدون أن تعرفوا... من هم؟

أتجهلون حقاً... من هم؟

حسناً... سأخبركم بأسمائهم واحداً واحداً... وفي ضميري تخضرّ قناعة وينمو يقين... أن لاخوف على أحد منهم... ولا ضير يمكن ان يمسّ أياً منهم... فكلاب القنص... اعني وجوهكم الأخرى التي تختفي خلف اقنعة الحضارة المزيفة والمدنية الدعيه... والألوان البراقة المتشققة التي تغطيها... لم يعد بوسعها أن تنال منهم... إلاّ بمقدار ماتنال أنياب الثعالب من جبال شمّاء... تعانق السماء... فكل واحد منهم قد غدا... أنشودة حية... لاأحبَّ الى الشفاه من التغني بها وترديدها... وصورة امل... لاأعذب ولا أجمل للعيون من التحديق بها... وإستلهام الزاد اليومي منها... والسير على هديها...

لقد ورثتها... يامضطهدي... من پروميثيوس... ومن سپارتاكوس ومن كاوه الحداد... ومن علي... ومن... ومن... ومن... والقائمة تطول... وتطول... فأعماق الانسان النظيفة... عميقة بعيدة الاغوار... وتاريخ الفعل الانساني الذي يحصن بغليته ونقاءه بالثورات والانتفاضات والتمردات... طويل... هو الآخر... واني اشفق على أمزجتكم الرقيقة جداً... ان تعتكر واخشى على اعصابكم الباردة جداً... أن تتبخر بفعل هذه... العلامات النارية... في طريق الإنسان المضيئة،

المضيئة... بالرغم من اطنان الظلمات والجهل... التي تكدسونها فوقها... وفوقه... وتحت وقع هذه الشهب النيرة التي تنزل على رؤوسكم الخاوية صواعق... صواعق... صواعق.

لا شأن لي، ياسادتي ويامعذبيّ، بطولها.

فمسيرة الانسان منذ غادر كهوف "نياندرتال" وحتى داس على سطح القمر بقدميه... طويلة... بالغة الطول... بيد أن طولها، مهما طال، لايثبط عزيمة... ولا يكسر همة... فقديماً قد قيل... وما أصدقه من قول... إن ملايين الاميال تُقطع بخطوة... واحدة. صدقوني... يامعذبيّ ويامضطهديّ... وسواء لديّ صدقتموني... أم لم تصدقوني... اني كنت أمارس حريتي... واتنفسها... وأستنير بها وأنا قابع في ظلمة رحم... أمي، ولكني... كنت امارسها... أو بالأحرى احياها... بسذاجة وسطحية... أما الآن... فقد تعمقت عندي الرؤى... فصرت اعرف لها... أبعاداً كثيرة... لاحدّ لها... أبعاداً اقتصادية واجتماعية ونفسية... و... كونية... ايضاً.

كيف؟

أتسألون كيف؟

كيف حدث... ماحدث؟

المسألة بسيطة... فإني قد كبرت... كما تكبر الأشياء كلها... وكبرت معي همومي ومداركي... وأحلامي... وكبر بالضرورة... أمامي السؤال... وإتسعت ساحته... وامتلأ بالالحاح والحاجة والضرورة... واشتد فيه الجوع وأخذ يصهل... ولم أعد تلك النطفة الصغيرة التي يحيط بها الظلام... وتحاصرها العزلة. وتقتات عليهما وتستقي منهما... كما لم أعد ذلك المخلوق الذي لاتتجاوز طموحاته حدود تسلق مجموعة من الأغصان. ولا تتعدى حاجاته حدود بطنه... وكل عالمه يقتصر على بضعة اشجار... في غابة نائية... نادراً ما تقع عليها عين مخلوق آخر... من صنف آخر.

لاذنب لي... يا أنتم... ويا هم... فيما حدث... ولماذا حدث... وكيف حدث... إنه منطق الكون والطبيعة والاشياء... إذ لا شيء... يظل في ثباته وسكونه... بل لاشيء يثبت أو يسكن... فتحت وفي ثنايا المظهر الساكن والثابت للحياة،

تجرى ملايين... بل بلايين الحركات والاحداث، نشيطة... قوية، خفية غير مرئية أو علنية واضحة... عنيفة مدمرة... أو هادئة أليفة... دون أن تقيم وزناً... لرغباتكم... أو نزواتكم... أو حتى اراداتكم... انه القانون الوحيد الخالد... في عالم لاخلود فيه لشئ عداه... كل شيء يتحرك كل شيء يتغير... يسير نحو سيرورة... اخرى، والكون قد اختارني... أنا... أنا الذي تسلبون حريته... حقه في الحياة... ليتحدث اليكم... من خلالي... ومن خلال تبدّل حالي وتغيرِّها من حال... الى حال.

وها قد تغيرت، تطورت. ترجمت لكم لغة الكون. غير المسموعة غير المرئية... الى واقع... ملء السمع والبصر...

لقد خلّفت مواقع... وتبوأت مواقع... تخليت عن مواقف وتبنيت مواقف، معبراً... حسب تقديري وفهمي للأمور... عن قدر أكبر من الوعي بقوانين الطبيعة والإنسان، ساعياً في سبيل تقليل المسافة بين كينونتي وبين طموحاتي... بين واقعي... وبين أحلامي... ولا يزال سلّم الزمن السرمدي... متحركاً... مندفعاً نحو الأمام... معبراً عن نفسه من خلال آخرين... بلغات اخرى... وتحت اشكال لاتجتر نفسها.

ليكن في علمكم- إن كان الأمر يهمكم- بأني قد صرعت من حلقي رائحة الحليب... منذ زمن طويل، وبت اجرع كؤوس الشراب كأيّ رجل مهموم... وأمتص أنفاس عشرين عبوة من النيكوتين... أو تزيد... في اليوم الواحد.

بيد أني... وبصراحة مطلقة، لاأزال... واظنني سأظل... غير قادر على خلق الانسجام بيني وبين ما أفعل، بالقدر الذي خلقتموه أنتم، بينكم وبين ممارساتكم اليومية... انتم الذين تغوصون عشرات المرات، في اليوم الواحد في أنهر الدم... وتعبّون... ماتعبّون... من مياهها. وتمتصون أنفاس عدة "عشرين" انسان أو تزيد... بين ضحكة الشمس في الصباح... وبين تجهمها في المغيب. أو بين تجهمها... وبين ضحكتها المشعة.

صحيح... اني إلتهمت الكثير من الكتب... وأحرقت أو ابتلعت العديد من القصاصات المضيئة... وان عقلي قد يكون متسخاً كما تزعمون، جراء ذلك كماسورة بندقية تخشون لما تنفجر... بيد أن كائناً صغيراً، بحجم قبضة اليد.

يقبع بين ضلوعي... ما زال يخفق بالحب... حب الانسان والأرض... وان هذا الكائن... نظيف... نظيف الى حد... يمكنني ان أبسطه على كفي... أو أن ارفعه فوق راسي تاجاً... وأجوب به الطرقات والشوارع... وأقتحم به المدن والعوالم... ولولا الخوف من السقوط في لغة الغرور... لقلت انه يملؤني زهواً... وخيلاء. فان يحتفظ المرء بضميره نظيفاً، في دنيا تفيض قذارة وتزداد اتساخاً... أمر ينبغي الاحتفال به. اطمئنوا... يا... جلاديّ...

وأقلعوا عن أوهامكم...

كل محاولاتكم في تنظيف... ماسورة عقلي... أو تلطيخ النظافة التي تخضرُّ في داخلي على الدوام، أو تشذيب النقاء الذي ينظم مجمل سلوكي... سيمتطيها الفشل... ويسوقها... كما تساق الحمير... ويصرخ بها... كما يصرخ بالدواب... WÇW¼ WÇW¼... WÇW¼... ï¼ ' ì ï¼ ˘ ˘ ˘ ش ش ش...

٢-١- الصوت... والصدى .

ودويّ في المدينة صوتٌ:

- دقائق... دقائق... ويتم الإجهاز على الوحش.

رددت المدينة من أقصاها... الى أقصاها:

"الوحش... وحش... حش... ش... ش... ش"

ولم يلبث... ان تلاشى الصوت... وذاب في بحر الصمت...

٢-٢- حبّ حزيراني!! في زمن غير حزيراني .

"مشهد صغير... من مسرحية شاملة... يتكرر تمثيلها في كل دار تنتزع من اصحابها... أو ينتزع منها اصحابها... قسراً"

الشخصيات:

١- الرجل الهزيل.

٢- المرأة البدنية.

٣- الضمير الغائب، الذي طال غيابه.

الوقت: ظهيرة يوم قائظ.

الزمن: الآن، الخارج من الأمس. والداخل في الغد. والمتواصل الى يوم "يعود" الى الدار، صاحبها، ساكنها ومالكها.

المنظر: [سطحا منزلين، متلاصقان حد التداخل. الشمس ساطعة تعبر عن نفسها بسخاء. يفصل السطحين، جدار واطئ لايتجاوز إرتفاعه المتر.

يظهر الرجل الهزيل فوق أحد السطحين وهو شبه عار "ملابس داخلية وحسب" يشد الى صدره "نعلين" من المطاط. بينما يلقى سترة (بجامته) على كتفه.

انه هزيل، شاحب، يشوب شعر رأسه بياض. يصدر أصواتاً مختلفة... خافتة، هامسة، مواء قط... ثم نباح كلب... ثم صياح ديك... منادياً شخصاً ما من السطح الآخر... يتلفت بخوف، ذات اليمين واليسار... كمن يتوقع أمراً ويخشى وقوعه. لذلك فهو مضطرب، يتقدم نحو الحائط... ويتراجع... يلقى نظراته هنا وهناك، يسير مستطلعاً... متلصصاً... يضرب "النعلين" ببعضهما... لاجدوى... ينحني عبر الحائط... ويصيح... بصوت محطوط]

الرجل الهزيل: "بصوت رفيع خافت. لايكاد يسمع. في البداية. ثم يعلو صوته..." را... حوم... راحوم... را... ح... و... م...، ثم بنقاء صبر، راحوم... راحوم [تظهر على السطح الآخر، إمرأة في حدود الثلاثين من العمر، بدينة، مترهلة. تفرك عينها، ترتب شعرها المبعثر... وهي بملابس النوم... تتثاءب. واضح انها قعدت من قيلولة...]

المرأة البدنية: "تضع كفها على عينيها. لتحجز عنها الشمس اللاهبة التي تواجهها مباشرة" و... ن...؟ أو...ه... أنت ثانية...؟

الرجل الهزيل: "بتوسل وذلة" ماذا أفعل؟ ... لا أجد الى النوم سبيلاً... يا روحي...

المرأة البدنية: "بإستهزاء" لاتنم... اذن.

الرجل الهزيل: النوم عبادة... ولا سيما... نوم الظهيرة.

المرأة البدنية: رح... احتضن زوجتك العجفاء... و... تعبد.

الرجل الهزيل: سئمتها... أشتهي التعبّد في محرابك.

المرأة البدينة: كذاب! ! تخشى أن ينط عليك... شياطينك الصغار... إعترف.

الرجل الهزيل: "صاغراً" أعترف... أعترف... كما تشائين... يا كاهنتي الحبيبة...

المرأة البدنية: كان ينبغي أن تحسبا لهذه الحالات حسابها... وأنتما تقذفان بالأطفال... واحداً تلو الآخر مثل معامل الأحذية...

الرجل الهزيل: وما جدوى... حساباتنا... الدولة تريد جنوداً وهي تدفع لنا... لكي ننجب لها... و...

المرأة البدينة: آه... يا ملعون... حتى عواطفك تبيعها بأبخس الاثمان... أي مخلوق بشع أنت...

الرجل الهزيل: "يتسلق الحائط" ما هذا بالوقت المناسب لهذا... النوع من الاحاديث... أنا قادم "يقفز الحائط. يحيطها بذراعيه، تدفعه عنها ضاحكة... تبتعد في غنج ودلال... يلاحقها"

المرأة البدينة: نهمُك... لايناسب حجمك.

الرجل الهزيل: انه يطمح ان يناسب حجمك... يا حبيبتي...

المرأة البدينة: (تمانع بدلال) دعني... لارغبة لي الآن...

الرجل الهزيل: (بلهفة) في ثوان... اجعلك... تلتهبين... في أتون الرغبة...

المرأة البدينة: الولد... لم ينم... بعد...

الرجل الهزيل: لقد حسبت حسابه "يخرج قطعة شكولا تة من جيب سترته" ستلهيه هذه الشكولا تة... عنا...

المرأة البدينة: (تخطفها منه، وتلقيها في جوفها) ولي...؟

الرجل الهزيل: لديّ منها الكثير (يهزّ السترة) بيد أني... اعددت لك... ما هو ألذُّ من الشكولا تة... يا ألذّ امرأة... في الدنيا كلها "يخرج من جيب سترته سلسلة ذهبية... يلوح لها بها..." أنظري...

المرأة البدينة: (مبهوتة بإستنكار) يا ذمي... عقد زوجتك؟

الرجل الهزيل: لطالما... رغبت فيه...

المرأة البدينة: رغبت في مثله... وليس فيه.

الرجل الهزيل: وما الفرق (ثم) إذا حضر الماء بطل التيمم...
المرأة البدينة: أوه... أنت لص... لص (ضاحكة) حقير... وحقيقي كيف تمكنت... إنها... لاتفارقه...
الرجل الهزيل: (مقهقهاً) في حالة... تعبّد...
المرأة البدينة: يا لك من نذل كبير... لاحرمة لديك لأي شيء... "كمن تتذكر" وحجلي؟
الرجل الهزيل: "متصنعاً الغفلة" الحجل؟ أي حجل؟
المرأة البدينة: حجلي الذهبي... ذو الخمسين مثقالاً من الذهب النقي الخالص... الذي سرقته في حالة مماثلة.
الرجل الهزيل: سرقته؟ أبداً... والله... إنما... إنما... كنت... أداعبك... أداعبك وحسب...
المرأة البدينة: أكاد أجزم إنك قد خدعت به زوجتك... أو أية امرأة أخرى...
الرجل الهزيل: بشرفي... أعيده اليك... هيا... هيا... قبلما ينتبه الينا أحد... هيا... هيا...
المرأة البدينة: (طائعة) متى... متى...
الرجل الهزيل: في حالة أخرى... مماثلة... ياحبيبتي... (يحتضنها... ويحتضنهما معاً... ظلام دامس)

[وهكذا تنتهي هذه المسرحية. أو بالأحرى تبتدئ... في مكان آخر، لا بل في أمكنة أخرى... في الزمن السافل نفسه].

٣ـ ١ـ عيون الأطفال

- أغلقي النافذة. يا... كلبه.

ولكن الطفلة ذات السنوات الأربع... أبت تنفيذ الأمر. أو... لابُدَّ أن يكون هذا هو التفسير المنطقي المناسب لردّ الفعل العنيف الذي أعقب الرفض. والذي استحال بدوره الى فعل. تحقق من خلال هبوط يد ثقيلة. بقسوة غير... عادية، على رأس الطفلة، التي وجدت نفسها ملقاة على الأرض، عند أرجل المنضدة التي بذلت مجهوداً، لايستهان به، في دفعها اسفل النافذة وارتقائها... لكي

تلتهم، بعيون جائعة متلهفة، ممتلئة بالفضول، ما يجرى خارج الغرفة... الموصدة... ابوابها... ونوافذها... وشقوقها... والذي تسمع به. ليل نهار، ولا تراه.

وبإلحاح الأطفال وعنادهم الذي لايلين. راحت الطفلة تتسلق أرجل المنضدة. مرة أخرى. وتمد عنقها ما تستطيع... لعلها ترى... ما يخرس فضولها.

- ولكني... لاأرى شيئاً مما تتحدثون عنه... يا أمي.

قالتها الطفلة، بصدق الأطفال... وبراءتهم.

- أغلقي فمك الكبير... ليس هذا من شأنك.

وإذ جرؤت الطفلة على عدم إغلاق فمها- الذي كان، في الواقع، صغيراً جداً وملموماً كحبة فستق مغلقة- بل وتمادت أكثر... إذ فتحته وقالت بأصرار:

- ولكني... اريد أن أعرف... يا أمي!!

كان جزاؤها حكمة بليغة، أنطوت على خبرة مسلكية طويلة. تكاتفت عهود سحيقة من تاريخ المرأة في صنعها وبنائها ونسج خيوطها الاخطبوطية. لذا اسقطتها الأم فوق رأس ابنتها، بما يليق بمكانتها من التقدير والاجلال، حد التقديس، انعكس في الهدوء الذي حفر لنفسه موضعاً في خضم بحر إنفعالها... وأمواجه المتلاطمة. مثلما إنعكس في البرود الذي إنتصب في أكثر من موقع... خلال نبرتها الممتدة ونبرات غضبها المتاججة وأيضاً في الفراغات العديدة، التي تسللت الى سيل كلماتها المتدفقة المتلاحقة:

- حين... تكبرين... تعرفين... وتفهمين... كل... شيء...

وأعقبتها بنظرة حادة... صارمة... تأمرها من خلالها... أن تبلع لسانها... أو تقطعه وتسكت... وتنظر... هكذا خرساء الى أن تكبر... بما فيه الكفاية... وإذذاك... إذذاك فقط قد يُسمح... لها... بأن تعرف... كل شيء... أو بعض الأشياء وقد تقتنع... بضرورة ان لاتفهم... ولا تعرف شيئاً... وأن تكتفي... بالإيمان... بما تسمع ولا ترى... وحسب.

٣ـ٢ـ من قتل الراعي حين أختضن قطيعه ؟

صوت: هيه... أنت: ماذا تنتظر؟ لماذا لاتغلق حانوتك؟ ألم تتبلغ بالأوامر؟

جواب: اللحوم... يا سيدي الكريم... اللحوم يصيبها العفن. فأنا... لا أملك مجمدة... ولا ثلاجة...

أمر: نفذ الأمر... ياحمار...

نصيحة: الا... اذا كنت تحب لحومك... أكثر من لحمك.

حيرة: (... ... ...)

إنطباع: لا... لا اظنه حماراً... الى هذا الحد...

شك: من يدري... لعله... كذلك...

قرار: اذن... فليتحمل العاقبة!!

رجاء وتوسل: لا... لا... أرجوكم... أتوسل اليكم...

الأمر ثانية: "وقد استحال الى أوامر" نفذ الأوامر... يا هذا... نفذها... فوراً...

خنوع: حالاً... سيدي... حالاً.

تبرير: صحيح... ان اللحوم... هي لحومي[1]... بحكم القانون ولكن اللحم الذي

(١) في الحقيقة والواقع. لم تكن اللحوم لحومه... وأن هذا الجزار يكذب ولعل هذا التاكيد الانفعالي من جانبه، يفنّد مزاعمه. وإذا أردنا أن نعرف المالك الحقيقي للحوم... وصاحبها الشرعي. فينبغي أن نبحث أولاً عن الراعي الذي سُلخ منه قطيع غنمه. قبل بضعة ايام وحسب، ولكن البحث عن الراعي، من شأنه، ان... يفضي بنا الى متاهة. ويوقعنا في معضلة... يحدد ابعادهما هذا السؤال البرئ جداً، وهو "اين هو الراعي. وماذا... حلّ به... وبقطيعه؟"

قيل، والعهدة على القائل... كما يقال:

ان الراعي، حين أبى تسليم اغنامه إليهم، إستقرت في جسمه في موضع القلب منه تماماً، رصاصة، فاوقفته عن الحركة. اولاً ثم اوقعته ارضاً... فعادت اليه الحركة. إذ راح يرفس ويلبط كسمكة... اخرجت من الماء، لفترة وجيزة... ثم تدحرج من قمة الرابية الخضراء حيث كان يرعى غنمه، واستقر في اسفل الوادي... (يقصد الراوي، قصر الوادي) وأهاجت رائحة الدم الفواحة... بضعة من الذئاب المفترسة... فهجمت عليه. وراحت تنهش لحمه في العراء... ثم روت عطشها الذي اثارته ملوحة الدم من مياه نهر صغير... جار... مشوب بحمرة قانية... تاركة العظام لحيوانات... أشد جوعاً وأقل جرأة. بينما جلست ذئاب من نوع آخر، أقل توحشاً وأكثر تمدناً، في الظاهر على الأقل، حول مائدة مستديرة... تقطع لحوم القطيع. إن الراعي، قد وقف حاجراً بين قطيعه وبين السكاكين التي إمتدت... لتبقر بطن أحد اغنامه. فاخترقت السكين بطنه هو "ثمه تاكيد على السكين أكثر وأقوى من الرصاصة" ثم انهالت عليه السكاكين الاخرى، من كل حدب وصوب... فمزقته إرباً إرباً... وإختلط لحمه باللحوم التي تباع في الحوانيت -ومن ضمنها حانوت الجزار الذي يدعي عائديه اللحوم اليه- ومما يؤكد هذا الكلام ويرتفع به الى مستوى طيب من اليقين، عند العديد من الناس، ان بعضهم انتبه الى صوت ينبعث من جوفه... وحين اصغى اليه، بعض الذين كانوا على علاقة مع الراعي القتيل، تعرفوا =

يكتسى عظامي... هو الآخر لحمي بحكم المشيئة الإلهية... والقانون الذي ملّكني اللحوم... يعوضني عنها بكل تاكيد... ولكن المشيئة الالهة... لاتعوضني لحمي... ولا تكسى عظامي مرة أخرى... باللحم... إن تجردت منه...

سؤال: بماذا تهَمهِمْ... ياهذا...

امتثال: لاشيء... لاشيء... ها أنا أمتثل للأوامر... ولكن... ولكن...

مقاطعة: ولكن... ماذا... ياكلب؟

جرأة: ما الذي يجري... بالضبط؟

إضافة: جرأة؟

لا... لا... وألف لا... لاينبغي أن يدخل هذا الإستفسار الحييُّ... الخجول... الخافت... الذي أطلقه الجزار، بعد تلكؤ وتردد كبيرين... دائرة الجرأة... أو الشجاعة... أو ماشابه... فما كان هذا الجزار، ولا سواه... ليجرؤ على الإفصاح... عما تعتلج به نفسه ويقلقها لولا أنه وضع في إعتباره تقديراً خاطئاً لمجمل الأمر. وقد تبين له خطأه مباشرة، أول ماغادر إستفساره الجريء!! جداً، وقبلما يمسح شفتيه... من آثاره الواضحة أو الخفية... وهذا التقدير هو الذي منحه ذاك القدر من القوة... التي إستمد منها شجاعة وقتية... لطرح إستفساره الآنف الذكر.

التقدير: أما التقدير الخاطئ... فقد كان... كالآتي: الخرخشة، التي لابُدَّ أن

= على نبرات صوته المميزة التي لاتقبل الشك...

والواقع... أن المسألة معقدة، كما ترى، ومرعبة ايضاً... وان الإيغال في التفكير فيها يزيدها تعقيداً ورعباً وإلاّ... فلتبلغ الجرأة بأحدكم، حد التطلع الى صورته في المرأة... أو في صفحة ينبوع ماء صاف، وهو يقضم لحسم... كائن بشري. وان هذا اللحم، يصرخ ويجتح، على الظلم الذي يلحق به... وهو لايملك له رداً، ولا الى منعه... سبيلاً، دون أن يقلع عن محاولاته اللامجدية في التمرد... والتحرر... من بين مخالبك... أو من بين انيابك وحتى من بين جدران بطنك... وهو يقاوم ويرفض المصير الذي تفرضه عليه أو يفرضه عليه القدر وهو الانسحاق والتفتت... بين انياب ذئاب... متوحشة... أو متمدنة...

لا... لا... أنا أمتلك الجرأة الكافية... بأن اعلق على الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ان اقتضى الأمر، باني لا اجرؤ على التفكير... في أمور فظيعة... كهذه... وهذا ما يجعلني أن أصرف النظر -حالياً في الأقل- عن هذا الموضوع... على أمل العودة اليه... ذات يوم في محاولة اخرى...

م.زنگنة

تثيرها البوابة وهي تهبط، لاسيما وقد مر عليها زمن طويل... لم تذق فيه طعماً لزيت... ولا شمت له رائحة من قريب أو بعيد بالرغم من إشتداد جوعها اليه ستشكل (الخرخشة) حاجزاً، ولو لدقائق... قادراً على منع كل صوت... وخنق كل ما يندُّ عنه من علامات إستفهام... غير مرغوب فيها. ولا يدعها تصل الى الآذان المفتوحة... لإلتقاط كل حركة وكل نأمة... وكل خرخشة.

بيد أنه وبالرغم من حرصه الشديد على توقيت إستفساره، مع زمن هبوط البوابة وإنبثاق الخرخشة في أشد حالات صخبها... فان الآذان المفتوحة الى آخرها... في كل الازمنة... قد... إلتقطته.

زجر: اغلق... فمك الكبير... يا كلب...

واغلق فمه الذي كان كبيراً حقاً، الى الأبد.

٤-١- تحت ظلال الوحش

٤-١-١-

- دقائق... دقائق وحسب... وسنخنق لكم... أنفاس ابشع وحش عرفته المدينة.
- اطمئنوا... يا هؤلاء... اطمئنوا... اطمئنوا... اطمئنوا...

وسقط مستطيل من الضوء داخل غرفة عالية في بناية شاهقة... ذات غرف عديدة... ثم سدّت منفذ الضوء، فتحة النافذة النصفية، رأس شعراء... فلاشت الضوء أولاً. ثم تحركت من جزئها الأسفل، شفتان، بضع حركات... فإنفرجتا قليلاً... وتحركت... خلفها قطعة لحم... فقذفت مجموعة كلمات... متقطعة... مضطربة... تشكلت في النهاية... على النحو الآتي:

- دقائق؟... الم تنفض هذه الدقائق الملعونة؟

وعاد الفراغ الى النافذة... إذ تراجعت الرأس الى الوراء... ولكن ضلفتي النافذة لم تلبثا ان سدتا الفراغ ثانية. فإمتصت الظلمة المشقوقة مستطيل الضوء، إذ عادت الى الإلتئام... فسقطت الغرفة كلها... في الظلام الذي كانت تعيشه من جديد.

٤-١-٢-

في الطابق الأرضي... من مبنى آخر، في مكان آخر، غير واضح الملامح... انفتحت كوة صغيرة... امتلأت بوجه... غير ذي هوية:

- تفو... على دقائقكم. أهي دقائق... إنها عمر... عمر... كا...

ورُدمت الكوة بسرعة خارقة... حتى ان الكلمة الاخيرة قطعت من منتصفها... فظل نصفها الثاني... في الداخل... ولم يطرق أذناً في الخارج.

٤-١-٣-

من مكان آخر، في بيت إعتيادي، لاصفة معنية له تميزه عن سواه من البيوت، تسلل صوت، تخنقه الدموع، من خلف باب موارب (برز الصوت من شقوق الباب العديدة):

- ومتى... تنفضي هذه الدقائق... يا ربي...

وتبعه صوت آخر، مثقل بالدموع هو الآخر:

- اني ادفع ثمن هذه الدقائق ذهبا... ان فواكهي[1] تتعفن... واعقبه، تضامناً، صوت بكاء جماعي. كان واضحاً من اختلاف طبقاته ونبراته، ان كل افراد الاسرة، تشارك، ربّها... تاجر فواكه الجملة... مخاوفه على فواكه(ه)... مصدر رزق(هم)...

(١) للتحقق من صحة إدعاء تاجر الجملة هذا... وأفراد أسرته، ينبغي القيام بعملية بحث وتقص للحقائق، شبيهة بالتي أجريناها حول أدعاء الجزار ملكية اللحوم التي في حانوته. وفيما يتعلق بي، أنا محي الدين زنگگنة، مؤلف القصة. وخالق احداثها وشخوصها. فقد إستطعت بعد اجراء بحث دقيق. مصنف طويل... أن أتوصل الى جملة حقائق... اضعها في خدمة التاريخ والحقيقة... وكل من يهمه امرهما... تاجر الجملة هذا... لم يكن أكثر من أحد الأشقياء. ولكنه هنا، حيث تتزمكن القصة، أصبح فجأة صاحب بستان تفيض بالخير والعطاء. دون ان تخترق قدمه شوكة... أو يسكب جبينه قطرة عرق. سوى ان حريته إخترقت العديد من الأجساد... وسكينه سكبت سواقي من الدم. حتى أن بعض الاشجار، اشجار بستانه(ه)، لاتزال تستقي حتى اليوم الدم. وقد أرجع بعض علماء النبات... الحمرة القانية في بعض الفواكه... الى هذا السبب.

م. زنگنة

٤-١-٤-

- لا... لا... لاتغلق النافذة... انتظر... انتظر... لدي سؤال...
- الى جهنم... أنت وسؤالك...

طاق... آه

٤-٢- كل السواقي الى البحر وليس البحر بملآن . (...)

واقتحمت مسامات جلدي رائحة قداح عبقة. تشربها سائر جسدي. ولكنها بدت مشوبة برائحة اخرى، قد غدت -على غرابتها الغريبة- مألوفة. اخذت اعبّ من رائحة القداح. ورائحة الأرض ورطوبة البساتين ونداوة الأشجار... أنفاساً عميقة، فتحت لها قلبي اوسع ماأستطيع... لكن الرائحة الأخرى، تحركت بعنف. وأخذت تغزو خياشيمي بعدائية سافرة... وكما يحدث في الاقتصاد وعالم المال حيث تطرد العملة الرديئة... العملة الجيدة... طغت، هي الأخرى، على رائحة القداح... وزحزحتها... بل راحت تمارس ضدها ارهاباً، تضطهدها . وتضطهدني معها...

آه... آه... اني أكاد اتقيأ احشائي... من رائحة الدم المتخثر التي اكتسحت الروائح الأخرى، كلها ، في هذه المدينة، مدينتي، البرتقالية... المشبعة... برائحة القداح... والاشجار...

اللعنة... ما الذي يجري في مدينتي البائسة؟ لقد تسمم حتى الهواء وفسد... "ستخنقها العفونة".

ويرتج كيانه لهذه الواقعة...

يقف مبهوتاً، مذهولاً . السؤال لايزال يذرّ املاحه فوق جروحه التي لاتلتئم. وإحساس قوي... بان ثمة كارثة مقبلة... على وشك السقوط على رأسه... أو رأس مدينته، يتفجر في اعماقه... يجعل صدره يعلو ويهبط... حتى ليكاد يسمع لصعوده صوتاً... ولهبوطه صوتاً... وهو، وحيد، بين الصوتين، يتكثف شعوره... بالضياع... في... في مدينته... وفي لبّ احشائها .

وإذ يظهر، على مبعدة منه، بعض الناس، بعض الكائنات... البشرية... يمتلئ

بفرح غير متوقع...

تبدأ عيناه تختصران المسافة بينه وبينهم... وبين بعضهم البعض تلغيانها... تملآن الفراغات الواقعة... فيما بينهم... تقربان الأبعاد تطويانها طياً... فتداخل وتمتزج بسرعة عجيبة... ويستحيل الناس الى نقاط... مجرد نقاط... نقاط طويلة... واخرى قصيرة... أو مكسورة. نقطة... نقطتان... ثلاث... عشر... ألف... ألفان... ألوف... آه... آه.

"رجلاي من رصاص".

لم يدرك هذه الحقيقة إلاّ حين همّ أن يتجاوز موقعه... ويخطو... نحوهم بفعل اللهفة التي احتوته من الداخل... فوجد نفسه عاجزاً، بصورة تامة، عن الحركة، اية حركة... فيظل جامداً في مكانه، مبحلق العينين... فاغر الفم... مذهول العقل.

وتمزق السكون المخيم على المدينة... اصوات.

اصوات ابواب تفتح ثم تغلق، اصوات نوافذ تفتح ثم تغلق، وعلى حين غرة، تمتلئ المدينة بالفراغ... ويمدّ يده ليمسك بنقطة تمر من جانبه... فتسقط يده في... الفراغ. يهم بالصراخ... فيختنق صوته في بحر الفراغ...

تتحرك النقاط، حركة لولبية، تدور حول نفسها اولاً... دورة دورتين... ثلاثاً... خمساً... ستة... ثم تنفرج. تسقط احداها الى جانب الاخرى... وتسقط الاخرى الى جانب اخرى... وتسقط الاخريات... الى جوانب الاخريات... فتستحيل الى خط. خط طويل... ينطرح الى جانبه خط آخر... يتمدد فيهما خط ثالث... ويسقط خط رابع... وخامس... و... و... و... وتختلط الخطوط... تتداخل... تتشابك... تتمازج تفقد حدودها الخاصة... تضيع الوانها... فيتدفق منها نهر... بلالون... أو بكل الالوان، ولا نه بكل الألوان... يبدو وكأن لا لون له... نهر صاخب شديد الصخب هائج... عظيم الهيجان... فتقتحم قحف راسه آلاف الأسئلة تحيله الى خلية نحل... بلا عسل، لاتهدأ ولا تستقر... غير انها تتبخر... قبل ان تلامس شفتيه... يجاهد للأمساك ببعضها . بعضها وحسب:

س١: ما الذي يجري... ياهذا ؟

ج١: لاجواب.

س٢: لماذا تركض... يا...؟

ج٢: ... .

س٥: أين وجهتك بربك؟

س٥:! ! !

سين ألف: أين تُساقون أيها...؟

سين مليون: أية قوة تسحب الأرض من تحت اقدامكم؟

سين بلا جيم، سين بلا جيم... سين... ... ...

النهر لايزال يتدفق... لايتوقف... لايلوى على شيء.

يعود صوته يهدر:

لا... لاتجرفوني معكم... أنا لست منكم... آه، لاتنتزعوني من جلدي... أنا لن اترك مدينتي، آه... لاتسلخوني من احلامي أنا لن أخرج من أحلامي... إنها مدينتي... يا هؤلاء... مدينتي. وأنتم لن تسرقوها مني ثانية... ولا تنتزعوها من ضميري... انها تحيا بي... وأنا أحيا... بها... آه... لا... لا... لا...

يصبه ما يشبه الدوار... وهو يرى الى الصور... والمشاهد المتعاقبة... المتلاحقة... تجري أمام ناظريه. تعقبه غيبوبة... تسلمه الى زمن مجهول المدى... ثم يستفيق... ليعثر على نفسه، رغم أنفه، وسط التيار. في خضم التيار الهادر الذي قوى واشتد... وازداد صخباً وعنفاً... وقد اغتال المسافات كلها... وخبط البساتين والحقول... وخلط البيوت والاشجار... ومزج الوديان والجبال... بيتي واحد لايحد طوله بصر... شجرة واحدة لاتؤطر مداها عين... جبل شاسع... يكاد يسد الأفق.

المدينة تهتز. كما لم تهتز من قبل قط. فيصبه دوران شديد. يدور حول نفسه كما كانت النقاط تدور... وعبثاً... يحاول الامساك بشئ... أي شيء... فيصرخ:

"مستحيل... مستحيل".

ليس بوسع أحد أن يقبض على حفنة زئبق.

لقد تزأبق كل شيء... رجال من زئبق. نساء من زئبق... البيوت زئبق...

الأشجار زئبق... الجبال زئبق... الوجود كله زئبق زئبق... زئبق... بق... بق... ق... ق...

حذار... حذار... لو توقفت... علكتك الأقدام.

- ولكن الى أين...؟ الى أين تسير القافلة؟

. لاتسأل... لاتسأل... الاحذية جائعة... اسرع... اسرع...

- لابُدَّ أن أعرف.

. لا أحد يعرف... لا أحد يعرف...

- أنا... اريد أن أعرف...

. كن مثل الآخرين... الحشر مع الناس عيد.

- لا...

يفجرها... بثورة وغضب.

يتوتر في موقفه... بعزم وإصرار. وإذ يدّب الخور بعد فترة غير قصيرة، في مقاومته للتيار الزاحف نحوه... وبه بجنون... ينطرح فوق الأرض، أرضه، ويلتصق بها... ويحتضنها... كما يلتصق الطفل الجائع بثدي أمه. فيسير فوقه النهر... البشري... يدوسه... حتى ليكاد يعيده الى احشاء امه... فيدخلها... جنيناً... محتمياً برحمها الرحوم الشجاع... حصناً منيفاً، بقية... الاهوال والشرور... اهوال هذه الدنيا الظالمة... وشرورها... التي لاتنتهي...

ينهض... متحاملاً على نفسه... ومتحملاً كل جروحه... يرى النهر قد إبتعد... ويرى نفسه مقذوفاً... خارجه، يتساءل بصمت:

- في أي بحر من بحار الجحيم. يصب هذا النهر العجيب؟

لايتوقف عن سؤاله طويلاً... ويقرر على الفور... إذ ينتبه الى نفسه مرمياً... خارج مدينته:

- يجب أن أعود، وأسدّ هذا النهر اللعين... من منبعه من، داخل المدينة... حتى... يجف... ويخضرّ الداخل...

ولكنه حين يصعق... تماماً... ويفتح عينيه وفاه... فائضين... بالدهشة والاستغراب... حين يدير ظهره... ليصر طريق العودة الى المدينة، فنفور اعماقه